



روايات مصرية للجيب

وداعاً للماضي



Looloo

www.dvd4arab.com

شريف سوقي

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
٩٠٨٤٥٥ - القاهرة

الجفاف ، فتشيع عبيرها الفواح في ثنايانا ، وتعيد الحضرة إلى
قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن
الأنانية والرغبات والشهوات ، هو أعظم شئ خلقه الله في
هذا الوجود !!

وفي هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية
الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع
من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ،
وترقق عواطفنا ..

وفي كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دُعنا نتقل من
زهرة إلى زهرة .. في بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة
الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

١ - لعبة الحب ..

أغمضت (سمح) عينها متظاهرة بالنوم ، في محاولة لتجنب
ثرثرة (حكمت هانم) ، التى لم تتوقف عن الحديث طوال
ساعة كاملة ، منذ أفلعت بهما الطائرة من (القاهرة) ،
وبصحبتهم (مديحة) ، ابنة (حكمت هانم) ، في طريقها إلى
(تونس) ، وقد أضافت (حكمت هانم) إلى حديثها إلقاء
التعليمات لابنتها ولـ (سمح) على نحو متواصل ، وكأنهما
مقبلتان على مهمة من نوع بالغ الخطورة ..

والواقع أنهما كانتا في طريقهما إلى (تونس) ، في مهمة
محدودة بالفعل ، على الرغم من التظاهر بأنها مجرد رحلة
للسياحة والاستجمام ، ولم تكن (سمح) راضية عن المشاركة
في تلك المهمة ، إذ كان هناك شئ ما فى ضميرها ، يجعلها تشعر
بعدم الارتياح ، على الرغم من كل التبريرات والغايات
النبيلة ، التى حاولت (حكمت هانم) إقناعها بها ..
شئ ما كان يملؤها شعورًا بأنها تشارك في لعبة رخيصة ..

ولقد فتحت عينيها بعد فترة ، واختلست النظر إلى
(حكمت هانم) وابنتها ، ثم تنفست الصعداء عندما وجدتهما
قد استغرقنا في النوم ، وأدهشها كيف أمكنهما ذلك ، وهما
مقدمتان على خداع رجل ، والتلاعب بمشاعره الجريحة ..

نعم .. لقد كان الهدف من هذه الرحلة هو الإيقاع بذلك
الشاب ، ذى المشاعر المزهفة والأحاسيس المخلصة
(حسين) ، وكان الطعم هو (مديحة) ، حُبّه القديم ، التى
تخلّت عنه يوماً وتنكرت لحُبّه وإخلاصه لها ، ثم عادت
بتعليمات من أمها ، التى ظلت دوماً ترسم خطواتها فى دقة ،
منذ نعومة أظفارها ..

عادت لتعزف على وتر مشاعره القديمة ، وتسترد الحبيب
الذى باعته يوماً .

وتطلعت (سماح) إلى وجه (مديحة) ..
كان وجهها جميلاً بالفعل ، يعطى المرء انطباعاً بالرقّة
والبراءة والرؤمانسيّة ، على عكس حقيقتها ..
وتعجبت (سماح) ، كيف يمكن أن ينطوى كل هذا
الجمال على الجحود والقدر ؟ وعادت تُردّد لنفسها :
— لا .. لن أظلمها .. ربما هى ليست بذلك السوء ، الذى

***** ٦ *****

تصوّرتها به ، يوم تخلّت عن (حسين) ، ويوم قرّرت التأثير
عليه لاسترداده ..

ولكن التأثير الحقيقى يعود إلى الأم ، وتأثيرها الشديد على
ابنتها ، ودفعها دوماً لتنفيذ إرادتها ، وإن لم تكن لتجح فى
ذلك ، لولا أن (مديحة) مهيأة بطبيعتها لهذا الأسلوب ،
ومستعدة للتجاوب مع أطماع ورغبات أمها ..

وحوّلت (سماح) وجهها عنها ، لتظر من خلال نافذة
الطائرة إلى السحب الممتدة أمامها ، وهى تساءل :

— ترى كيف يستقبل (حسين) (مديحة) ، بعد كل
هذه السنوات ، التى مضت على فراقهما ؟ ..

هل سيغفر لها ما ارتكبته فى حقّه فى الماضى ؟ .. ولكن ربّما
يكون قد أحب فتاة أخرى ، على الرغم من أن المعلومات التى
جمعها عنه (حكمت هانم) تؤكد أنه لم يتزوج بعد ، أو يرتبط
بخطبة مع فتاة أخرى ، ولكن هذا لا يمنع من ارتباطه عاطفياً
بفتاة ما ، نسي معها حُبّه القديم لـ (مديحة) ، وخيانتها له ..
ولكن لا .. إن الحبّ الكبير ، الذى أحبه لها ، لا يمكن أن
يفارق قلبه بهذه السهولة ، فهى تعرف عمق مشاعره ، التى
أعجبتها دوماً ، ولا تزال تذكر كيف كانت تراه ، وهى فى

***** ٧ *****

السادسة عشرة من عمرها ، كأحد فرسان العصور
الوسطى ، بقامته المشوقة ، وابتسامته الأخاذة ، وإن لم
تسمح لمشاعرها هذه أبدا بتخطي حدود الإعجاب ، لما تراه
من عاطفة قوية نبيلة ، تجمع بينه وبين ابنة خالتها (مديحة) ،
منذ كانا زميلين في الجامعة ، وجارين بحى المعادى ..

ولكن الأم وقفت في سبيل تنويع تلك العاطفة بالزواج ،
عندما توفى والد (حسين) ، وعلمت بحقيقة مركزه المالى ،
وأن المصنع الذى يمتلكه لم يعد يكفى لسداد ما تراكم عليه من
ديون ، وبالتالي فإن ميراث (حسين) ، بعد وفاة الأب ، لم
يتجاوز بضعة آلاف من الجنيهات ، لا تكفى أطماع الأم
وتطلعاتها بالنسبة لابنتها .. تلك التطلعات التى جعلتها تنظر إلى
كل أمور الحياة كصفقة ، لا بد أن تكون رابحة ، إلا أن الغريب
هو امتسلام (مديحة) لما طلبته منها أمها ، تخليها عن
(حسين) ، بخثا عن زوج أكثر ثراء ..

لقد عجزت هى أيامها — وحتى الآن — عن فهم ذلك أو
تقبله ..

لقد كانت تصوّر أن (مديحة) شديدة التعلق
بـ (حسين) ، وأنها لن تتخلى عنه أبدا ، مهما كانت
الظروف ، ولكنها فعلت ..

***** ٨ *****

ولم يكن ذلك عجباً بالنسبة لـ (مديحة) ، كما أدركت
(سماح) فيما بعد ..

ربما كانت تحب (حسين) بالفعل ، ولكن ذلك الحب لم
يكن يكفى لهزيمة حبها لتلك الحياة ، التى رسمتها لها أمها ،
وأنشأتها حاملة بها ..

حياة الأميرات ..

ولم ينمح من ذاكرة (سماح) أبدا ذلك المشهد المؤثر ، يوم
سعى (حسين) خلفهم ، إلى (الإسكندرية) ، بعد أسبوع
واحد من رفض الأم اقترانه بابنتها ، على ذلك النحو الجارح
القاسى ، وهى تؤكد — دون حياء — أنه لم يعد يناسب ابنتها
ماديا أو اجتماعيا ، وأنه من الأفضل له أن يبحث عن زوجة
أخرى أقل .

ولكن (حسين) ظل متشبثا بالأمل ، على الرغم من سفر
الأم وابنتها إلى (الإسكندرية) ، فى محاولة لصهر مشاعر
الابنة ، ومحوها فى بؤثرة من الحفلات والسهرات الفاخرة ،
ذات البذخ والرفاهية .

وعندما جاء (حسين) إلى (الإسكندرية) ، كان مدفوعا
بقناعته إلى أن (مديحة) لن تتخلى عنه أبدا ، وأن ما سمعه من

***** ٩ *****

أُمها لا يتعدى كَوْنُهُ رَأْيَا شَخْصِيًّا ، ولقد وصل يوم أُخِلِدَتْ فِيهِ
الْأُمُ وابْتَنَاهَا إِلَى الرَّاحَةِ ، بعد أن قَضَيْتَا يَوْمًا شَاقًّا فِي التَّسَوُّقِ ،
وَقَرَّرَتْ فِيهِ (سَمَاح) قَضَاءَ بَعْضِ وَقْتِهَا فِي شَرَفَةِ الْفَنْدُقِ
الْعَامَّةِ ، الْمُطَلَّةِ عَلَى الْبَحْرِ ..

وَكَانَتْ تَغَادِرُ الْمِصْعَدَ ، فِي طَرِيقِهَا إِلَى الشَّرَفَةِ ، فَوْقَ
بَسَاطِ الْفَنْدُقِ الْأَحْمَرِ ، عِنْدَمَا خَاطَبَهَا مَوْظِفُ الْاسْتِقْبَالِ ،
قَائِلًا :

— آنَسَ (سَمَاح) .. مَعْدِرَةٌ .. لَقَدْ طَلَبْتَ (حَكَمْتَ
هَانِمَ) وَابْتَنَاهَا عَدَمَ إِزْعَاجِهِمَا ، مَهْمَا كَانَتْ الْأَسْبَابُ ، وَلَكِنْ
هَنَّاكَ شَخْصٌ يَلْحَقُ عَلَى طَلَبِ مُقَابَلَةِ الْآنَسَةِ (مَدِيحَةَ) ، وَلَقَدْ
حَاولَتْ إِقْنَاعَهُ بِالْحُضُورِ فِي وَقْتٍ آخَرَ ، وَلَكِنَّهُ مَا زَالَ يَصْرُّ عَلَى
مُقَابَلَتِهَا ، وَ

قَاطَعَهُ صَوْتُ (حَسَنِ) ، وَهُوَ يَقُولُ :

— أَنْتِ (سَمَاح) ، ابْنَةُ خَالَةٍ (مَدِيحَةَ) ؟

التَفَتَتْ إِلَيْهِ (سَمَاح) ، وَرَأَتْهُ فِي هَيْئَةِ رَثَّةٍ ، وَقَدْ نَمَتَ
لَحْيَتُهُ ، فَأَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا إِيْجَابًا ، وَقَدْ تَأَثَّرَتْ لِرُؤْيَيْهِ عَلَى هَذَا
النَّحْوِ ، وَغَمِغَمَتْ :

— نَعَمْ .. أَنَا هِيَ .

***** ١٠ *****

قَالَ فِي صَوْتٍ يَشْفُ عَنْ حَالِ صَاحِبِهِ :

— لَا بُدَّ أَنْكَ تَعْرِفِينِنِي .. أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟

غَمِغَمَتْ فِي خَجَلٍ وَرَثَاءَ :

— بَلَى يَا أَسْتَاذَ (حَسَنِ) .. أَعْرِفُكَ .

بَدَأَ وَكَأَنَّ مَعْرِفَتَهَا لَهُ قَدْ بَعَثَتْ فِي نَفْسِهِ الْارْتِيَاحَ ، فَأَسْرَعَ
يَقُولُ فِي رَجَاءٍ :

— حَسَنًا .. لَا بُدَّ أَنْ تَسَاعِدِينِي إِذْنًا .. أُرِيدُ رُؤْيَا
(مَدِيحَةَ) .

أَجَابَتْهُ فِي ثَلَاثِمْ :

— إِنَّهَا تَسْتَرْجِعُ الْآنَ ، وَلَسْتُ أَظْهَرُ
قَاطَعَهَا مَتَوَسِّلًا :

— أَرْجُوكَ .. لَنْ أُعْطِلَهَا كَثِيرًا .. أُرِيدُ أَنْ أَلْتَقِيَ بِهَا بِضْعِ
دَقَائِقٍ فَحَسَبَ ..

هَنَّاكَ الْكَثِيرَ مِمَّا أُرِيدُ قَوْلَهُ لَهَا ، وَلَكِنِّي سَأُخْتَصِرُهُ .. أَعِدْكَ
بِذَلِكَ .. فَقَطَّ سَاعِدَيْنِي عَلَى مُقَابَلَتِهَا .. أَرْجُوكَ ، وَدُونَ أَنْ
تَشْعُرَ وَالِدَتَهَا ، حَتَّى لَا تَخُولَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا .

تَرَدَّدَتْ وَهِيَ تَخْشَى مُصَارَحَتَهُ بِمَوْقِفِ (مَدِيحَةَ) ، إِلَّا أَنَّهُ
تَشَبَّثَ بِهَا مَتَوَسِّلًا ، وَهُوَ يَقُولُ فِي لَهْجَةٍ يَصْعَبُ رَفْضُهَا :

***** ١١ *****

— أرجوك .. أنت لا تعرفين مقدار حبي لـ (مديحة) .. أنا أعلم جيدًا أنها واقعة تحت تأثير أمها ، وأنها لن تتخلى عن حبا بمثل هذه السهولة ، ولقد ادخرت مبلغًا من المال ، يمكننا أن نبدأ به حياة جديدة ، وإن اختلفت صورتها عما رسمناه لها قديمًا ، ولكنها ستكون حياتنا ، وستزوّج ، ونضع تلك الأم القاسية أمام الأمر الواقع ، فلن نستغنى عن بعضنا أبدًا .
أشفقت (سماح) أن تخبره بأن (مديحة) ليست من ذلك النوع ، الذى يضع عواطفه فوق مصالحه ، كما يتصور ، ولكنها أبعدت أصابع (حسين) المتشبّثة بذراعها فى رفق ، وهى تغمغم :

— سأحاول .

هتف فى امتنان وارتياح :

— شكرًا لك .. شكرًا .. سأنتظرك فى الشرفة .

اتجهت فى تردّد إلى حجرة ابنة خالتها ، ولكنها توقفت على الرغم منها — أمام حجرة خالتها (حكمت هانم) ، وهى تتساءل عمدًا إذا كان من حقها أن تقوم بدور الوساطة بين (حسين) و (مديحة) ، دون أن تخبر خالتها بالأمر ، وهى التى تولّت رعايتها منذ طفولتها ، بعد وفاة والديها ؟ .. لقد

حذرتها خالتها مرارًا من تشجيع (مديحة) على مقابلة (حسين) ، وأخبرتها أنها تعتبرها راعية ابنتها ، على الرغم من أنها تصغرها بأربع سنوات ..
ولقد وعدتها هى بأن تفعل ..
فهل تفى بوعداها ؟

إن خالتها و (مديحة) تريان أنه من الحماسة أن يتخلى المرء عن المال ، فى سبيل العاطفة ، فى حين ترى هى أن الحماسة الحقيقية هى أن يضحي المرء بتلك المشاعر الرائعة ، مهما كان الثمن ..

فهل من الخيانة أن تبلغ (مديحة) ؟ ..
لا ..

الخيانة الحقيقية هى أن تخون ثقة أودعها إيّاها (حسين) .. واسترجعت نظرات الرجاء والتوسّل فى عينيه ، وأدركت أنها لا تملك سوى معاونته وتحقيق رغبته .
واتجهت إلى حجرة (مديحة) ..

٢ - جرح في قلبه ..

فتحت (سماح) باب حجرة (مديحة) ، التي جلست
تترين أمام مرآتها ، وقد ارتدت ذلك الثوب الجديد ، الذي
ابتاعته لها والدتها هذا الصباح ، فغمغمت (سماح) :
— ظننتك نائمة .

أجابتها (مديحة) ، دون أن تلتفت إليها :
— لم أستطع مقاومة رغبتى فى ارتداء ثوبى الجديد .. إن
ذوق أمى رائع فى انتقاء الثياب .. أليس كذلك ؟
لم تجيبها (سماح) على سؤالها ، فقد كانت تبحث عن وسيلة
لنقل خبر وجود (حسين) فى الفندق إليها ، وتتساءل عما إذا
كان ذلك سيثير شوقها إليه ، فتهرع نحوه فى لحظة ، حتى ولو
بقى ذلك مجرد رد فعل وقضى ، سرعان ما يذوب أمام نهمها
إلى الحياة ..

انزعها صوت (مديحة) من أفكارها ، وهى تسألها :
— ألا يعجبك الثوب ؟

***** ١٤ *****

ابتسمت ابتسامة باهتة ، وهى تقول :
— إنه رائع للغاية .

بدا كما لو أن (مديحة) قد انتهت إلى شيء ما ، فقد رسمت
على وجهها نظرة أسف مفتعلة ، وهى تقول :
— معذرة يا (سماح) .. لقد نسينا أن نبتاع لك ثوباً
جديداً ، فقد كانت أمى متعجلة ، و
قاطعتها (سماح) فى لهجة سريعة (وكأنها تخشى التراجع :
— (مديحة) .. (حسين) ينتظرك فى شرفة الفندق .
بوغت (مديحة) بالخبر ، فظلت صامتة برهة ، وقد
ارتسم على وجهها تعبير غريب ، هو مزيج من الدهشة
والانزعاج ، وتلغمت قائلة :

— (حسين) ؟! .. ما الذى جاء به إلى هنا ؟
قالت (سماح) بنفس اللهجة السريعة :
— إنه يريد مقابلتك ، ولقد توسل إلى من أجل هذا .
تطلعت إليها (مديحة) فى شحوب ، واختفت الابتسامة
عن وجهها ، وعادت تدير عينيها إلى مرآتها ، وتضمنت
طويلاً ، قبل أن ينطلق الرد القاسى من بين شفتيها ، وهى تصيح
فى انفعال :
— لا .. لن يمكننى مقابلته .

***** ١٥ *****

وعلى الرغم من أن (سماح) لم تتوقع غير هذا، إلا أن ردّ (مديحة) صدم شعورها شخصيًا، فاندفعت تقول في حدة: — ولكنه في حالة سيئة للغاية، وهو لا يطالبك بأكثر من بضع دقائق للحديث.

هزت (مديحة) كتفها، دون أن تحوّل عينيها عن المرأة، وكأنها تخشى أن تلتقي عيناها بعيني (سماح)، وقالت: — لا فائدة من الحديث، لقد انتهى ما بيننا، ولن نتجادل في هذا الشأن.

قالت (سماح):

— اجعلي القرار ينبع منك أنت، ولا تجعلي خالتي تقرر لك كل أمورك.

أجابتها (مديحة) في عصبية:

— ومن قال إنه ليس قرارى؟.. إن قراراى وقرارات أُمى تتفق دوماً، وهذا ليس عيباً.

غمغمت (سماح):

— ولكنك كنت تحبين (حسين)، وكنتما تخططان لزواجهما، و.....

ارتسمت في عيني (مديحة) نظرة تحار ما بين الألم والندم، وهى تقاطعها في ضعف:

***** ١٦ *****

— يبدو أننى لم أحبه بالقدر الكافى، وإلا فما تراجعت عنه حبه فورَ اعتراض أُمى عليه.. الواقع أننى أحب الحياة.. أحبها رغبة مريحة، مع ثياب فاخرة، وحفلات، ومتاع.. أريد شخصاً يمنحنى كل هذا، ولم تعد ظروف (حسين) تسمح بذلك.. لست أنكر أننى أحببته، ولكن جزءاً من هذا الحب كان يعود إلى ثرائه، الذى كان سيعزز حبنا حتماً، ويضمن له النمو والاستقرار.. أما بعد ظروفه الجديدة، فستكون حياتنا شاقةً مرهقة، ولن أحتملها حتماً، مع تعارضها مع كل ما حلمت به طيلة عمرى.. ربما أكون مخطئة، وربما بدؤت في نظرك أنانية مدللة، ولكن هكذا أنا.. إنها طبيعتى، ولن أخالفها، ومن الأفضل — كما ترين — ألا يرتبط (حسين) بفتاة مثلى، فهو شاب جاد، مثالى العواطف، يحاول أن يرسم لى دوماً صورة خيالية، وهذا يعدبنى، فهو يثقل على تلك الصورة، التى تضعنى فى مصاف الملائكة، وتدفعنى دوماً إلى التظاهر، ب.....

ترددت لحظة، ثم أضافت:

— لا.. ليس مجرد التظاهر.. لقد كنت أسعى بالفعل لأكون هذه الصورة، التى تخيلها عنى، وكلما فشلت زاد شعورى بالذنب، وكان هذا يرهقنى ويعذبنى.. وأنا أريد أن

***** ١٧ *****

أعيش كما أنا ، وأن أكون ما أنا عليه بالفعل .. هل أدركت الآن أنه ليس قرار أمي ؟ .. ولا بسبب الظروف المادية وحدها .. إنني أختلف عن (حسين) .. أختلف عنه جذريًا ، وإن كنت أعترف بوجود شيء من الحب في قلبي تجاهه .. لقد عذّبتني هذا طويلاً ، حتى جاء اعتراض أمي ليحسم كل هذا العذاب والتردد في أعماقي ، وهذا أفضل .

قالت (سماح) فيما يشبه الرجاء :

— ألا يمكنك مقابله بضع دقائق ؟ .. أسمعيه كلمات طيبة على الأقل .

اتخذ وجه (مديحة) قناعاً بارداً جامداً ، وهي تقول في لهجة جافة :

— لا .. لم يعد بيننا ما يمكن قوله ..

قالت (سماح) ، وصوتها يحمل رنة حزن :

— ولكنه يجبك كثيراً يا (مديحة) ، وسيصدمه رفضك في شدة .

نهضت (مديحة) من مقعدها ، وراحت تدور حول نفسها في ببطء ، وهي تتأمل ثوبها الجديد في المراة ، وتقول بلامبالاة :

— الزمن كفيل بعلاج الصدمات ، هيّا يا (سماح) ..

***** ١٨ *****

اهبطي إليه ، وانصحيه بنسيان كل شيء ، والتعامل مع الواقع الجديد ، فهذا أفضل له .. ولكن عودي سريعاً ؛ لتساعديني في انتقاء ثوب مناسب لسهرة الليلة .

تطلعت إليها (سماح) لحظات في أسف ، ثم انصرفت وقد تحوّل شعورها تجاهها إلى مزيج من استياء وغضب ، لم تعرفهما طيلة عمرها ..

وكان (حسين) جالساً في أحد أركان الشرفة ، يدخن سيجارته في عصبية جعلته لا ينتبه إلى مشهد البحر الساحر ، وأمواجه المتلاطمة على كتل الصخور ، التي تطل عليها شرفة الفندق ، ولكنه لم يكد يري (سماح) ، حتى ألقى سيجارته ، وهبّ يستقبلها في لهفة وشوق ، ولكنها شعرت بعجزها عن أن ترفع عينها إليه ، فأطرقت برأسها مغممة :

— لست أدري ماذا أقول ، ولكن

قاطعها في شحوب :

— هل رفضت مقابلي ؟

أومأت برأسها إيجاباً ، فانهار فوق مقعده ، وأدار وجهه إلى البحر ، متمتماً في مرارة :

— لا فائدة إذن .. لقد انتهى الأمر .

قالت (سماح) محاولة أن تطيب خاطره :

***** ١٩ *****

— (مديحة) ابنة خالتي حقًا ، ولكنني أقول لك ، وبمتهي
الصدق : إنها لا تستحقك ، فهناك آلاف الفتيات غيرها يتمنين
شأنًا مثلك .

بدا شاردًا عمًا تقول ، وهو يردّد في حزن خافت :
— كنت أظنه تأثير أمها عليها ، ولكن يبدو أن الأم والابنة
لا يختلفان .. إنها لم تكن تجبني كما توهّمت ، لقد كانت تحب
تلك الغنيمة ، التي تصوّرت أن تحصل عليها بعد وفاة أبي ..
أيقّل أن هذه هي (مديحة) التي أحببتها ؟ .. أيمن أن يُخدع
المرء في إنسانة كانت أقرب ما يمكن إليه هكذا ؟ .. لقد كانت
طيلة علاقتنا كجزء مني .. أيمن أن يخون الجزء الكل
هكذا ؟ .. أيمن أن يفصل عنه بكل هذا الجحود ؟ ..

تأثرت (سماح) بقوله ، حتى أوشكت على البكاء ،
فأمسكت يده في رفق ، وهي تقول :

— لا تندفع في مشاعرك على هذا النحو .. إن (مديحة)
تكن لك شيئًا من الحب بالفعل ، ولكنه حبّ مبثور ، يشاركك
فيه حبّها القويّ لحياة الثراء والجاه ، فقد نشأت وتربّت منذ
طفولتها على نحو أشبه بالأميرات ، وغرست فيها خالتي
الإحساس بأنها لم تُخلق إلا لتحيا حياة رغدة ، ولهذا نشأ حبها
لك فقيرًا ، لا يتساوى قطّ مع مشاعرك النبيلة نحوها .

***** ٢٠ *****

بدا كما لو أن (حسين) قد شعر بوجودها لأول مرة ،
فتطّل إليها طويلًا ، قبل أن يسألها :
— كم عمرك ؟

بدا لها سؤاله غريبًا ، ولكنها أجابه :
— سبعة عشر عامًا .

قال وقد ازداد تفرّسًا في ملامحها :
— سبعة عشر عامًا ؟ .. إنك أصغر مما تصوّرت بكثير ،
وعلى الرغم من ذلك فأنت تملكين عقلًا وقلبًا أكثر رجاحة من
الكثيرات .

تضجّ وجهها بخمرة الخجل ، وتحيل إليها أن شيئًا
ما يسرى في جسدها ، أشبه برجفة للذيدة ، لهذا الإطراء ،
وهو يستطرد :

— إنك تختلفين كثيرًا عن ابنة خالتك ، ولكن من يدري ،
كيف ستغيّرك الأيام ؟ وهل ستحتفظين بتلك الأشياء
الجميلة ؟ أم سيكون شأنك شأن الأخريات ، عندما تحين لحظة
ارتباطك وزواجك ، فتبدّل مشاعرك ، وتقسين على من
يمنحونك الحب ؟ .

انقلبت نشوتها إلى شعور بالمهانة لعبارة الأخيرة ، وتحولت
خمرة الخجل على وجنتيها إلى احتقان غضب ، إلا أنها لم تلبث
أن تماكنت نفسها ، مقدّرة مواقفها ، وهي تقول :

***** ٢١ *****

— لن أعاتبك على ما قلته الآن ، فأنا أقدر مشاعرك ،
ولكن كل ما أرجوه هو ألا يدفعك موقفك الشخصى إلى
إصدار أحكام عامة ، تجاه كل المشاعر الطيبة ، والقيم النبيلة ،
التي ماتزال ترخر بها الدنيا ..

وصمتت لحظة ، وهى تتطلع إلى الخيرة التى ملأت
وجهه ، قبل أن تستطرد :

— قد يدهشك أن تصدر تلك الكلمات من ابنة السبعة
عشر عامًا ، ولكن من أدراك أنها لم تخبر الحياة أكثر منك ؟ ..
لقد توفى والدك منذ بضعة أشهر فحسب ، وكنت تحيا وسط
أسرة توفرت لها أسباب الثراء والرفاهية ، ولم تخبر مثلى
الجحمان المادى والمعنوى ، ولم تعرف قسوة اليم فى طفولتك ،
والحياة فى كنف الآخرين ، حتى ولو كانوا يمتنون لك بصلة
القربى ، ولكنهم يتعاملون وكأنهم يفضلون عليك بالعيش
بينهم ، ويدفعونك إلى خشية مخالفة أمر من أوامرهم ، حتى
لا تُتهم بالجحود .. صحيح أنهم يدعون أمام الجميع أنهم
يعاملوننى كفرد من أسرهم ، ولكن الحقيقة تختلف ، فسأبقى
بالنسبة إليهم ذوًا فى الدرجة الثانية ، لا أتجاوزها بأى حال من
الأحوال ، وإلا وجدت نفسى فى الشارع .. هكذا تعلمت ابنة
السبعة عشر عامًا منذ طفولتها .. تعلمت ما يجب أن يقال ،

وما لا ينبغى أن يذكر .. تعلمت كيف لا تتجاوز الحدود
المسموح بها ، وكيف تتقى غضب الآخرين .. تعلمت كيف
تحيا فى كنف خالة قاسية ، وابنة خالة مدللة .. لقد كان من
الأجدى أن أحلم أنا بدور الأميرة ؛ لأننى قد حرمت منه على
الأقل ، ولكن كل ما أحلم به هو قلب محب مخلص ، يزخر
بالحنان ، وما زلت أجد ذلك نادرًا فى عالمنا وزماننا .

تأملها فى إعجاب صامت بعض الوقت ، ثم غمغم وهو
يضافحها :

— كنت أتمنى أن ألتقى بك فى ظروف أخرى .. أشكرك
على أية حال .

تعلقت بيده ، وقد عاودها شعورها بالأسى نحوه ،
وسألته :

— ولكن ماذا ستفعل الآن ؟
لم تنجح ابتسامته الباهتة فى إخفاء مرارته ، وهو يقول :
— سأحاول أن أنساها ، وأبدأ من جديد .
استدار لينصرف ، إلا أنه لم يلبث أن عاد إليها ، قائلاً :
— أشكرك مرة أخرى ، لقد خفف حديثك معى الكثير
من جراحي .. لقد كنت أحتاج إلى إنسانة مثلك فى هذه
اللحظات الأليمة .

رأت تلك الدموع المتصارعة في مُقَلَّتَيْهِ ، فخفق قلبها ألماً ،
وأدركت أنه قد تلقى بالفعل صدمة قاسية ، وأنها قد انشغلت
بالدفاع عن نفسها ، متناسية أنه رجل فقد على التو مكانه في
قلب الإنسانية الوحيدة التي أحباها ، وعاش يُوقن من حبها له ..
رجل صُدِمَ في كبريائه وكرامته ..
وقبل أن تنطق بكلمة ، كان قد استدار وأسرع يغادر
المكان في خطوات واسعة ، ربّما لأنه خشى أن يُعْجِز عن سجن
تلك العبرات طويلاً في مُقَلَّتَيْهِ ..
العبرات التي لم يُغْدِ يملك سواها ..
وسوى كرامة جريحة ..



***** ٢٤ *****

٣ — لقاء مرفوض ..

انتهت (سماح) على صوت مضيئة الطائرة ، وهي تهنيئ
الركّاب بسلامة الوصول إلى مطار (تونس) ، وبدأ الركّاب
في مغادرة الطائرة إلى ردهة المطار ، وعادت خالتها إلى إلقاء
الأوامر والتعليمات ، وكأنها تتحدّث إلى سكرتيرتها الخاصة ،
على حين راحت (مديحة) تخطو داخل الردهة الضخمة في
خطوات رشيقة ، وعلى وجهها ابتسامة مشرقة ، وقد بدت
سعيدة واثقة من نفسها ، ومن نجاحها في تنفيذ الحُطّة التي
رسمتها لها أمها ..

وبعد ساعة واحدة ، كانت (حكمت هانم) تقول
لموظف الاستقبال ، في ذلك الفندق ، الذي حجزت فيه
الحجرات مسبقاً ، وهي تتحدّث في أرسقراطية :

— لقد تم حجز حجرتين هنا ، باسم (حكمت هانم) .

أجابها موظف الاستقبال ، وهو يتسم :

— نعم ياسيدتي ، هناك حجرتان محجوزتان باسم

***** ٢٥ *****

(حكمت هانم) ، في الطابق الخامس لمدة أسبوع ، وأرجو أن
تطيب لكن الإقامة هنا .

قالت (حكمت هانم) :

— ربما طالت إقامتنا أكثر من أسبوع .

ابتسم موظف الاستقبال ، وهو يشير إلى حامل الحقيبة ،
ويناوله مفتاحي الحجرتين ، قائلاً :

— سيكون هذا من دواعي سرورنا يا سيدي .

راحت (مديحة) تدير عينيها فيما حولها ، في فضول
واهتمام ، على حين بدت (سماح) غير مبتهجة ، على الرغم من
جمال المكان ورؤعته ، وسألت (حكمت هانم) موظف
الاستقبال في لهجة ودود :

— هل تعرف فندق (الأنوار) ؟

تطلع إليها الموظف ، وقد أدهشه تواضعها المفاجئ ،
وسؤالها الذي بدا وكأنه محاولة للمقارنة بين الفندقين ،
وأجاب :

— إنه يقع هناك ، على الساحل الغربي ، على مسافة
مسيرة ساعتين من هنا بالسيارة .

سأله وهي تضغط حروف كلماتها :

— يقولون إن صاحبه مصري .. أليس كذلك ؟

***** ٢٦ *****

أجابها الرجل في لهجة مهذبة :

— بلى .. إنه المليونير المصري (حسين وجدى) .. لقد
أصبح المالك الفعلي للفندق ، بعد وفاة شريكه التونسي ،
وشرائه لكل الأسهم من ورثته .

ابتسمت (حكمت) في سعادة ، وقد سرّها أنها لم تخطئ
الهدف الذي جاءت من أجله ، وأن (حسين) قد عاد زوجها
مناسباً لابتها ، بعد أن حاز صفة المليونير ، التي وصفه بها
موظف الفندق ، في حين تنبّهت (مديحة) إلى اللقب ،
فهتفت مبهورة :

— مليونير ؟! .. هل أصبح (حسين) مليونيراً حقاً ؟!

أما (سماح) ، فقد شعرت بالسعادة والرضا لما سمعته . إذ
رأت أن (حسين) قد حصل على ما يستحقه من تعويض ، وأن
إعجابها به يتزايد . بعد أن نجح بكّده وجدّه في إعادة بناء
نفسه ، والتغلب على كارثة ضياع مصنع والده ، وصدمته في
حبّه ..

والعجيب أنها شعرت في تلك اللحظة بلهفة شديدة ..
لهفة إليه ..

توقفت سيارة الأجرة أمام فندق (الأنوار) ، وهبطت

***** ٢٧ *****

منها (حكمت هانم) و (مديحة) و (سماح) ، ووقفن يتطلعن
إلى الفندق مبهورات ، فقد كان يقع على ربوة خضراء ، تطل
على ساحل البحر ، وقد أحاطت به أشجار النخيل ، و صفوف
متراصة من شجيرات خضراء وارفة ، في مشهد رائع خلّاب ،
فتن (مديحة) وبهرها ، فهتفت مشدوهة :

— يا له من مكان رائع بديع يا أمّاه !!... أملكه (حسين)
حقاً ؟!

أضافت الأم ، وهي تدير عينيها في المكان في نهم :
— لا تنسى أنه يمتلك أيضاً مصنعا للملابس والأدوات
الرياضية ، وما خفي كان أعظم .

قالت (مديحة) متهمّة :
— أهذا هو الشاب الذي رفضه زوجا لي يوماً ، ووصفته
بأنه صُغُوك ؟

أجابتها وهي تهتد ثوبها :
— ومن أدراي أن الصُغُوك سيصبح مليونيراً بهذه
السرعة ؟ ولا تنسى أنك لم تترددي لحظة في رفضه آنذاك ..
ولكن من الواضح أننا قد أخطأنا الحكم عليه ، ومن الضروري
أن نعترف بذلك ، فلقد أثبت أنه لا يفتقر إلى الذكاء أو
الإرادة ، ويمتلك كل مقومات النجاح .

***** ٢٨ *****

سألها (مديحة) :

— ولكن لماذا لم نأت لنقيم في هذا الفندق مباشرة ؟... ألم
يكن ذلك يمنحنا فرصة أفضل في لقاء (حسين) ؟ خاصة وأنه
كان من المحتمل أن يمنحنا هو إقامة مجانية .

رمقتها أمها بنظرة لؤم وسُخط ، وهي تقول :

— يا للعجب !!... تُبدين أحياناً من السذاجة ما يدفعني
للشك في كونك ابنتي !!... لقد أخبرتك أنه من الضروري أن
يبدو الأمر كما لو أننا نلتقي بـ (حسين) بمحض الصدفة ، حتى
لا يشعر — ولو لحظة واحدة — أننا نسعى خلفه طمعاً في
ثروته ، أو أن أحوالنا قد تدهورت ، فأتينا لنفرض أنفسنا
عليه .. يجب أن نحافظ على اعتزازنا بأنفسنا أمامه ، فلا ريب
أنه يحمل لنا الكثير من الذكريات السيئة ، بعد رفضنا له
قديمًا ، ودورك هو أن تظهرى لهفتك وفرحتك برؤياه ،
وتخترعي المبررات والأسباب التي اضطررتك لرفضه ، واللعب
على أوتار مشاعره ؛ لإيقاظها من جديد ، على أن يبدو ذلك
طبيعياً غير مُفتعل ، بحجة أننا قد أتينا (تونس) لقضاء أسبوع
سياحي ، ثم علمنا بالمصادفة أنه يمتلك هذا الفندق ، فأتينا
لزيارته كصديق ، ومن الضروري أن تتوحي الحذر في
أسلوبك ، فلو كشف أمرنا فقد يجدها فرصة للانتقام والتشفي .

***** ٢٩ *****

شعرت (سماح) باشمزاز من أسلوب حالتها ، وتدخلت
قائلة في ضيق :

— (حسين) ليس غيًّا كما تتصوران ، ولن تنطلي عليه
لعبتكما بهذه السهولة .

وخفت صوتها ، وهي تستطرد :
— وإن كنت أظن أن جبهـ لـ (مديحة) سيكفى لينسى كل
شيء ، ويغفر لها ، ويعود إليها .

سألتها حالتها في دهشة :
— وما الذي يجعلك واثقة هكذا ؟

أجابت (مديحة) بدلاً منها :
— لقد كنت أقصرَ عليها كل ما بيني وبينه ، وهي تدرك
شِدَّة ارتباطه بي .

قالت الأم في ضجر :
— حسناً .. دعونا لانضيع الوقت ، ولنبدأ حطّنا على
الفور .

في نفس اللحظة كان (حسين) يغادر الفندق من باب
خاص ، فلمح (حكمت) وابتهـ و (سماح) ، ولقد أدهشه
ذلك في البداية دهشة سمرته في مكانه ، قبل أن يتأدى أحد
خدم الفندق ، ويقول له في حزم :

***** ٣٠ *****

— اسمع يا (صلاح) .. أخبر موظف الاستقبال أن سيّدة
وفاتين سيسألته عني ، فليخبرهن أنني غير موجود ، وأني قد
غادرت (تونس) لمدة يومين أو ثلاثة ، وإذا حاولت السيّدة
استئجار حجرة بالفندق ، فليبلغها أن الحجرات كلها محجوزة
لشهر على الأقل .

قال هذا وعاد أدراجه إلى الفندق ، فسأله الرجل في
خبرة :

— ما اسم السيّدة يا سيّدي ؟
أجابه (حسين) في توتر ملحوظ ، وهو يدلف إلى
المصعد :

— (حكمت هانم) .
ثم ألصق جبهته بجدار المصعد ، وهو يصعد به إلى الطابق
الذي يقيم فيه ، وراح يردّد في اضطراب واضح ، والعرق
يتصبّب على جبينه :

— لماذا عادت ؟ .. لماذا ؟ .. لقد نسيتها .. نسيتها .
— ولكن اضطرابه كان يؤكّد أنه لم يفعل .. ولم ينسها
أبداً ..

***** ٣١ *****

٤ — مشاعر مُتناقضة ..

لم يكد (حسين) يلمح انصراف (حكمت هانم) والفتاتين،
من نافذة جناحه الخاص، حتى أسرع يهبط إلى موظف
الاستقبال، ويسأله في هفة :

— ماذا حدث ؟

أجابه الرجل :

— لقد سألتني عنك السيدة، فأخبرتها أنك ستغيب ثلاثة
أيام خارج (تونس)، كما أمرت، فأبدت هي وإحدى
الآنستين أسفهما لذلك، وتركت لك الآنسة خطاباً، وقالت
إنها ستعود لرؤيتك بعد ثلاثة أيام.

اختطف (حسين) الخطاب من يد موظف الاستقبال في
هفة، وفضّه ليقراً ما كتبه (مديحة).

« عزيزي حسين ..

حضرت إلى (تونس) في صحبة والدتي، وابنة خالتي
(سماح)؛ لقضاء أسبوع للراحة والاستجمام، بعد انقضاء

***** ٣٢ *****

فترة عصبية من فترات حياتي، ولقد أسعدني للغاية أن أعلم
أنك قد أصبحت تمتلك فندقاً هنا، وحضرنا جميعاً لمقابلتك
وتهنيتك، ولكننا وجدناك متغيّباً للأسف، ولكنني سأعود
إليك بعد ثلاثة أيام، فأنا أشعر بشوق شديد لرؤيتك، قبل
عودتي إلى القاهرة، ..
ملحوظة :

لو عدت قبل الأيام الثلاثة، فإحضّر لزيارتنا في فندق
(هيلتون)، حيث نقيم ..

(مديحة)

زاغت عيناه وهو يعتصر الورقة بيده، ويلتقط نفساً
عميقاً، دون أن يتحرك من مكانه، فسأله موظف الاستقبال
في قلق :

— أنت بخير يا سيدي .. هل حدث شيء ما ؟

أجابه (حسين) في صوت خافت، تشوبه نبرة حزن :

— لا .. لا شيء .. مُر بصرف سيارتي وسائقتي، فلن

أغادر الفندق اليوم، ولست أحب أن يزعجني أحد، فأنا
مريض، وأحتاج إلى الراحة ..

وعندما صعد مرة أخرى إلى جناحه، كان يعلم أنه حقاً

مريض ..

***** ٣٣ *****

[٣٤ — زهور (٣٢) وداعاً للماضي]

شعور متناقض ، ذلك الذى ملأ نفس (سماح) ، منذ عودتها إلى الفندق ..

لقد أسعدها عدم لقاء (مديحة) بـ (حسين) ، لما كان سينطوى عليه من خداع وتلاعب بقلبه ومشاعره اللذين تحترمهما ، وأحزنها أنها لم تَرَهُ ، ولم تلتق به ، على الرغم من شوقها لذلك ..

وكان ذلك التناقض يُزبِكها ، ويزيد من شعورها بالضيق والتبرُّم ، اللذين لازماها منذ بدأت الرحلة ، حتى لقد تمتت لو أنها لم تحضر إلى (تونس) قط ..

وانتزعتها من خواطرها وتوَلَّرها صوت (مديحة) ، وهى تقول :

— (سماح) .. ألا تسمعينى ؟ .. إننى أتحدث إليك .

انتفضت ، وهى تلتفت إليها قائلة :

— مَعْدِرَةٌ يا (مديحة) ، يبدو أننى قد شرذت قليلاً .

سألها (مديحة) :

— أخبرينى .. أتظنين أننا سننجح فى لقاء (حسين) ، قبل

عودتنا إلى (القاهرة) ؟

— لو عاد بعد ثلاثة أيام ، كما أخبرنا موظف الاستقبال فى فندقه ، فسالتقى به .

— ولكنه أصبح رجل أعمال ، ومثله لا يمكنهم التحكُّم فى أوقاتهم ، وقد يقتضى منه الأمر التغيب خارج (تونس) لأكثر من ذلك .

— اطمئنى .. إن خالى مُصِرَّة على إتمام ذلك اللقاء ، حتى ولو اقتضى منها الأمر قضاء أسبوع آخر فى (تونس) .

— ولكن ذلك يُرهق ميزانيتنا ، فأنت تعلمين أن الأمور لم تُعَد بالنسبة إلينا كما كانت فى الماضى ، والإقامة فى فندق كهذا تتطلب الكثير من المال .

— أليس من الأفضل إذن أن نعود إلى (القاهرة) ؟ ..!

إننى أجد أنه لا مبرر للعب كل ذلك الدُّور ، وإعداد كل تلك التدابير ، للظفر بقلب رجل رفضته يوماً ، خاصة وأنك جميلة ، وستجدين العشرات ممن يمكنهم منحك نفس ما سيمنحك (حسين) إياه ، بل أكثر منه ، مع ملاحظة أن كل ما يدفعك إليه هو الثراء ، وليس الحب .

أجابتها (مديحة) فى سخرية حزينة :

— أنسيت أننى قد اختبرت ذلك يوماً ؟ .. لقد تزوّجت

(عبد القادر) ، الثرى المعروف ، المقامر السُّكَّير العرييد ،

الذى لم أكن له سوى واجهة اجتماعية يتباهى بها أمام الآخرين ،
ثم كشفت بعد وفاته أنه كان متروجا من أخرى ، باعها كل
أملكه ، وأنه قد سخر منى حيا وميتا .. لا .. لست مستعدة
لتكرار تلك التجربة المؤلمة .

قالت (سماح) :

— ليس الجميع مثل زوجك السابق ، فليس من الضرورة
أن يكون كل ثرى مقامرا سيكيرا عزيزا ، ثم لا تنسى أنه كان
من اختيار أملك أيضا .

غمغمت (مديحة) :

— كان أسوأ اختيار قادتني إليه .

— ومع ذلك فهأتذى تبعين خياراتها مرة أخرى ،
وترضين بلعب ذلك الدور اللاأخلاقى ، لاستعادة رجل
أحبك يوما ، ورفضته أنت بكل قسوة .

— لا يا (سماح) .. الأمر يختلف بالنسبة لـ (حسين) ،
فلست أطيع أمى مجرد الطاعة هذه المرة .. إننى أحب
(حسين) ، وأنت تعلمين ذلك .

— أين كان ذلك الحب إذن ، عندما جاء يرجوك بضع
دقائق فى (الإسكندرية) ، فرفضت حتى مقابلته ، وجرحت
كبرياءه ومشاعره ؟ .. هل عاد فقط بعد أن أصبح مليونيرا ؟

***** ٣٦ *****

أشاحت (مديحة) بوجهها ، وهى تقول معترضة :
— كفاك تهكما .. إننى لم أنكر حبى لـ (حسين)
حينذاك ، ولا حبى لذاتى ، وللحياة الرغدة الناعمة .. لم أنكر
حبى للثراء ومظاهر الرفاهية ، ولو كان (حسين) ثريا
حينذاك ما رفضته ..

هتفت (سماح) فى انفعال :

— بأى منطق تتحدثين ؟ .. إنك تخلطين المشاعر بالماديات
دون تمييز .. إن الحب يأتى دوما فى المقام الأول ، فكفى بالمرء
شخصا يادله حبا صادقا شريفا ، ليلقى كل الماديات خلف
ظهره .. إن الحب ثروة لا تعدلها ثروة ، أما المزج بين الحب
والمادة ، والتضحية بالحبيب لو الفقر إلى الثراء ، وعجز عن
توفير الحياة الرغدة المرفهة ، فهذا لا يغنى سوى أمر واحد ،
وهو أنك تجهلين ما الحب ، ولن يمكنك معرفته يوما ، لأنك
لا تحبين سوى شخص واحد ، هو نفسك .

صاحت (مديحة) فى غضب :

— كيف تتحدثين إلى هكذا يا (سماح) ؟ .. أنسيت
نفسك ؟

بدا وكأن هذا القول قد أيقظ (سماح) ، فأطرقت
برأسها ، قائلة فى مرارة :

***** ٣٧ *****

— مَغْدِرَةٌ .. يبدو أننى قد نسييتُ نفسى بالفعل .. نسييتُ
أننى ، وعلى الرغم من كَوْنى ابنة خالتك ، وأقيم بنفس
حجرتك ، أنْ دَوْرى الحقيقى لا يَغْدُو كَوْنى خادمة أو
وصيفة ، وأنه ليس من حقى تجاوز حدودى ، خاصة وأن
خالتى وزوجها لهما على أفضال لا تُحصى ، فقد أنقذانى من
اليثم والجوع والتشريد ، و

قاطعتها (مديحة) فى لدم :

— (سماح) .. إننى لم

ولكن (حكمت هانم) دلفت إلى الحجرة فى هذه اللحظة ،
وهى تقول فى غَطْرَسَة :

— ماذا حدث ؟ .. لقد سمعتكما من حجرتى المجاورة
تتجادلان فى صوت مرتفع .

أجابتها (سماح) ، ودموعها تترقرق فى عينيها :

— لا شئ .. لم يحدث شئ .

وعندما اندفعت خارج الحجرة ، كانت عيونها تتفجر
بالدموع ..

دموع القهر والمرارة ..

٥ — لقاء مُفاجئ ..

لم تدرِ (سماح) إلى أين تقودها قدمائها ، منذ غادرت
الفندق غاضبة ، واستقلت أول حافلة عامة ، نقلتها بعد مسيرة
نصف الساعة إلى ميدان كبير ، راحت تُجُول فيه ، على غير
هذى ، حتى توقفت أمام واجهة أحد محال الثياب ، وهزم
فضولها مشاعرها الغاضبة ، وهى تستعرض الثياب النسائية
الأنيقة والمُبهرجة ..

ودفعها الفضول إلى دخول المحل ، لمشاهدة تلك الثياب
عن قُرب ، ما دامت لا تملك ما يكفى لاقتنائها ، وراحت
تستمع بمشاهدة الثياب فى الداخل ، دون أن تجرؤ حتى على
لمسها ..

وعلى الرغم مما سببته لها (مديحة) من شعور بالألم
والمهانة ، إلا أن أول ما جال بخاطرهما ، وهى تستعرض
الثياب ، وبغفوية شديدة ، هو أن ترشدها إلى ذلك المتجر ،
وقد تناست كل ما حدث ، وتذكرت فقط أن ابنة خالتها تهوى
ذلك النوع من الثياب الفاخرة ، وأنها ستسعد حتماً

لو امتلكت أحدها ، وهى تسعد بدورها ، عندما ترى سعادة
(مديحة) ، فهى لم تطمع يوماً فى امتلاك ثوب فاخر ، على
الرغم من أن (مديحة) تتنازل لها من آن لآخر عن بعض ثيابها
الغالية ، وكانت هى تكتفى برؤية الثوب الجديد على جسد
(مديحة) ، و

وفجأة ارتطمت بشخص ما ، وهى تتراجع إلى الخلف ،
لتأمل ثوب أنيق ، فاستدارت تغمغم فى ارتباك :
— مَعْدِرَةٌ .. إننى لم

لم تكتمل عبارتها ، وعقدت المفاجأة لسانها ، وهى تحدق
فى وجه ذلك الشخص ، قبل أن تهتف :
— أستاذ (حسين) ؟!

تطلع إليها فى دهشة ، وبدا وكأنه يذل جهدا ليتذكرها ،
قبل أن يهتف :

— يا إلهى !! أنت ذات السبعة عشر ربيعاً التى التقيت
بها فى منزل (حكمت هانم) ، وراحت تتحدث بما يتجاوز
عمرها .. أليس كذلك ؟

لم تجبه (سماح) ، وإنما هتفت فى دهشة :
— ولكنهم أخبرونا أنك قد غادرت (تونس) !!
— من هؤلاء ؟

***** ٤٠ *****

— أقصد موظف الاستقبال فى فندقك .
— وهل ذهبت إلى فندقى ؟
— نعم .
— وحدك ؟

— بل مع خالتى و (مديحة) .
أطلق زفرة قصيرة ، عندما سمع اسم (مديحة) ، ثم تجاهل
الأمر ، وهو يسألها :

— وما الذى دفعكم إلى الذهاب إلى فندقى ؟ .. بل ما الذى
أتى بكم إلى (تونس) ؟

ضايقها أنه يطررها بالأسئلة منذ التقيا ، فسأله بدورها :
— وهل أزعجك هذا ؟

أجابها فى صراحة قاسية :

— لا يمكننى أن أنكر هذا .

ثم أردف متسائلاً :

— ولكن لماذا أتيت إلى (تونس) ؟ ومن أخبركم أننى
أملك هذا الفندق ؟

صمت برهة وهى تفكر .. أخبره بالحقيقة أم لا ؟
ووجدت نفسها تكرر ما سمعته من خالتها فى آلية :

— لقد جئنا للاستجمام والسياحة ، فخالتى مريضة ،

***** ٤١ *****

ولقد نصحتها الأطباء بالاستشفاء هنا ، ولقد علمنا من موظف
فندقنا — بالمصادفة — أنك تمتلك فندقاً في (تونس) .
قالتا وهي تطرق بوجهها أرضاً ، وقد غمرها شعور عارم
بالذنب ، وانتظرت أن تتلقى منه ردّاً ، إلا أنه تحوّل عنها إلى
فتاة جميلة ، أقبلت نحوه مرتدية ثوباً من الدانتيل الزرقاء ، وهي
تقول :

— ما رأيك ؟

أجابها في هدوء :

— رائع .. ذوري حول نفسك .

أطاعته الفتاة ، وهو يتأملها في دقة ، ثم قال :

— حسناً ، ستشاركون به في عرض الأزياء ، الذي سيقام

بفندق ، يوم الأحد القادم ، والآن اذهبي إلى مدام (سيمون) ،

واطلبي منها تضيق الخضر قليلاً .

أطاعته الفتاة هذه المرة أيضاً ، وهي تُلقى إليه بقبلة في

الهواء ، فسألته (سماح) في فضول :

— أهي صديقتك ؟

أطلق ضحكة قصيرة ، قبل أن يسألها :

— ما رأيك ؟

أجابته في حرج :

***** ٤٢ *****

— إنها جميلة جداً .

تابع ضحكته ، وهو يقول :

— لست أتحدّث عنها ، بل عن الثوب .

أجابته في حماس :

— إنه رائع خلّاب .

— أترغبين في اقتناء ثوب مثله ؟

— كل فتاة ترغب في ذلك ، ولكنني لا أمتلك ثمنه .

— لم أسألك عن الثمن ، سألتك فقط عما إذا كنت

ترغبين في اقتناء ثوب مثله .

— لست أظنه يناسب فتاة مثلي .

ركّز نظراته على وجهها ، وهو يقول :

— ولكنه يناسب فتاة مثل (مديحة) .. أليس كذلك ؟ ..

إنه يدخل ضمن الأشياء التي تعشقها ، والتي تضحّي من

أجلها بالكثير ، وبعواطف رجل أحبّها بكل صدق وإخلاص .

تُحِيل إليها أن نظراته تحاصرهما ، كأنما هي المذنبه ، فأدارت

دقة الحديث ، قائلة :

— ولكن ماذا تفعل في هذا المتجر ؟ .. أصدقتك هذه

الفتاة أم خطيبتك ؟

ابتسم ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

***** ٤٣ *****

— إننى أمتلك هذا المتجر ، إلى جوار الفندق ومصنع
للملابس الرياضية ، وهذه الفتاة ليست صديقتى أو خطيبتى ،
إنها عارضة أزياء تعمل لحسابى هنا ، وفى عروض الأزياء ، التى
أقيمها فى فندقى ، بين حين وآخر .

اكتسى وجهها بخمرة الخجل ، وهى تقول مبتسمة :
— ولكن تلك القُبلة ، التى أرسلتها لك فى الهواء تفوق
ذلك .

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

— ما زال فهمك يتجاوز عمرك .
هتفت مُختبئة :

— لم أَعُد صغيرة ، إننى فى الثانية والعشرين من عمرى .
ضحك (حسين) قائلاً :

— وعلى الرغم من ذلك ، فما زالت معلوماتك قاصرة فى
هذا المجال .. إن لى بعض الصديقات بالطبع ، ولكن ليس على
النحو الذى تتصورينه .

— ولكن الدنيا قد ابتسمت لك كما أرى ، فأنت تملك
فندقًا ، ومحلاً للأزياء ومصنعًا للثياب الرياضية .. لقد صِرْتَ
مليونيرًا فى زمن قياسي .

— هذا صحيح ، ولكن هذا لم يحدث دفعة واحدة .

— كيف حدث إذن ؟

— سأخبرك ، ولكن ليس هنا ، فالمكان لا يصلح لذلك .
وأخبر مدير المتجر بأنه سيتغيب بعض الوقت ، ثم قال
لـ (سماح) :

— هيا .. سنذهب بسيَّارتى .

ولم تسأله عن المكان الذى سيذهب بها إليه ..
إنها حتى لم تحاول ..

لقد انساقت خلفه كالمُسَيِّرة ، وهى تشعر برغبة ملحة فى
معرفة قصته ..
وفى مرافقته ..



٦ - اللقاء المُرْتَقِب ..

امتدَّ بصره إلى الأفق المواجه لفندقه ، وبدأ شارداً ، وهو يقول :

— لقد حملت معي المبلغ الصغير ، الذي تبقى من ثروة أبى ، وجئت إلى هنا ، بعد لقائنا الأخير فى (الإسكندرية) ، وكنت قد اتفقت مع صديق لوالدى ، على العمل كمدير لهذا الفندق ، الذى يمتلكه ، ولقد وافق — وفاءً لأبى — على أن أسهم بنقودى القليلة فى رأس مال الفندق ، وتعاملت أنا معه بكل كفاءة وإخلاص ، وكان هو يعتبرنى ابنه ، بعد وفاة ابنه الوحيد . فتنازل لى عن هذا الفندق قبل وفاته بيوم واحد ، وتحول الحب الفاشل ، والمشاعر الجريحة ، التى جئت بها إلى هنا ، إلى إرادة قوية ، وعزيمة لا تحمد ، وإصرار لا يلين على النجاح والتفوق ، وهكذا حقق الفندق أرباحاً ضخمة خلال سنوات قليلة ، وأضفت إليه مصنع الملابس الرياضية ، ومحل الأزياء .

سأله فى اهتمام :

***** ٤٦ *****

— أيعنى هذا أنك قد تغلّبت على مشاعرك نحو (مديحة) ؟
فر من السؤال فى ذكاء ، وهو يسألها :
— مَعذِرَةٌ .. هذا يخجلنى ولكن ما اسمك ؟ .. إنك لم تخبرينى به ، ولقد نسيت .
أجابته فى خيبة أمل :
— (سماح) .

هتف :
— آه !! تذكرت .. كيف يمكن أن ينسى المرء صفة رائعة كهذه .

حاولت أن تتكلم ، ولكنه قاطعها قائلاً :
— (سماح) ، أعتقد أنك قد تأخرت ، وأظنهم سيقلقون بشأنك الآن ؛ لذا أقترح أن أقوم بتوصيلك إلى فندقك ، ولنتابع حديثنا فيما بعد .

لم تجد (سماح) بُدّاً من الاستسلام لاقتراحه ، وقد بدا عازفاً عن خوض أى حديث آخر ، وتركته ينطلق بها إلى فندقها ، حيث ودّعها أمامه ، قائلاً :

— (سماح) .. أريد منك أن تعيدنى بأمر ما ، وهو ألا تبغى (مديحة) بأننا قد تقابلنا ، فلا أريد أن تعرف بوجودى فى (تونس) حتى الغد على الأقل ، ولا تسألينى عن السبب .

***** ٤٧ *****

أخفت دهشتها ، وهي تقول :

— أعدك بذلك .

ابتسم قائلاً :

— وأنا واثق من أنك ستحفظين وعدك .. والآن ، هل

نلتقى غدا ؟

هممت بالاعتذار ، ولكنه وضع إصبعه فوق شفيتها ، مشيراً

إليها بعدم التحدث ، وقائلاً :

— لا .. لا أعذار .. ستأتين .. يجب أن أراك ، فما زالت

لدى رغبة قوية في التحدث إليك .

أجابته دون وعي :

— وأين سنلتقى .

— أمام جامع (القيروان) .

— ولكنني لم أذهب إليه قط .

— استقلي واحدة من سيارات الأجرة ، واطلبي من

سائقها توصيلك إلى مدخل الجامع الرئيسي ، وهناك

ستجديني في انتظارك ، في العاشرة صباحاً .

— سأحاول .

— أنا واثق من أنك ستفعلين .

هبطت من السيارة ، واتجهت نحو الفندق ، ولكن صوته

استوقفها :

***** ٤٨ *****

— (سماح) .

التفتت إليه ، وخفق قلبها وهي ترى ابتسامته الأخاذة ،

التي افتقدتها طويلاً ، وهو يقول :

— لقد سعدت حقاً بصحبتك .

غمغمت في حياء :

— وأنا أيضاً .

ثم أسرعتم تعدو نحو الفندق ، وقد أورثها خفقان قلبها

خوفاً مفاجئاً ..

لم يكن ذلك التغير المفاجئ الذي اعتراها ، هو مصدر

خوفها ، وإنما كان (حسين) ..

كانت تخشى ، لو توقفت أمامه لحظة واحدة ، أن يسمع

دقات قلبها ، وهي ترلزل ما بين جوانحها ..

وأدركت لحظتها أنها قد وقعت ..

وقعت في هواه ..

هرعت إليها خالتها فور رؤيتها ، والقلق يرتسم على

وجهها ، وهتفت بها :

— أين كنت يا (سماح) ؟ لقد أقلقنا عليك كثيراً .

أجابتها (سماح) في هدوء :

***** ٤٩ *****

— معذرة يا خالتي .. لقد شعرت برغبتي في استنشاق
بعض الهواء بالخارج .

قالت خالتها في عتاب :

— لا تُقَدِّمي على هذه الحماسة مرة أخرى ، فلا يجوز أن
تغادرينا إلى جهة مجهولة ، وتركينا لكل هذا القلق ، كلما
نشِب خلاف بسيط بينك وبين ابنة خالتك .

واندفعت (مديحة) تحتضنها ، عندما رأتها مُقبلة مع أمها ،
وهي تقول :

— (سماح) .. أنا آسفة حقًا .. ربما بدَّوت في بعض
الأوقات متهورة ، و

قاطعتها (سماح) :

— ليس هناك ما يستحق أن تعتذري عنه .

— أين ذهبت ؟

— لقد جَوَلت في المدينة قليلاً .

قالت خالتها :

— والآن عودا إلى حجر تكما ، فكلنا بحاجة إلى الراحة .

بعد ذلك الإرهاق العصبي ، الذي تعرَّضنا له بسببك
يا (سماح) .

لم تجد (سماح) في نفسها ميلًا إلى الغضب من لهجة خالتها

***** ٥٠ *****

الجافة ، كما لم تكن تحتاج إلى اعتذار (مديحة) ، ولا إلى التفكير
فيما قالته ، فقد كان هناك شيء واحد يقلقها ، ألا وهو ذلك
اللقاء ، الذي دُبِّرَه القدر بينها وبين (حسين) ..

ظَلَّت شاردة ، وهي تستعيد وقائع ذلك اللقاء ، وحديث
(حسين) معها ، وذلك الشعور الغريب ، الذي اعتراها
وهي توذَّعه ..

وبرغم إحساسها بالذنب ؛ لأنها أخفت على (مديحة)
ما حدث ، إلا أن ذلك كان يختلط في أعماقها بلمحة من
السعادة ، لوجود سِرٍّ صغير تشارك فيه مع (حسين) ،
حيث أصبحت وحدها تعلم أنه لم يغادر تونس ، ووحدها
يمكنها مقابلته والاستماع إليه ..

وألقت رأسها على الوسادة ، وتركت (مديحة) تتحدَّث ،
دون أن تنصت إليها ، وعيناها تلتهمان عقربي الساعة المعلقة على
الحائط ، وهي تتعجَّل لحظة اللقاء ..
لقاء (حسين) ..

استقبلت (حكمت هانم) وابنتها رغبة (سماح) في
التجوال في المدينة بمفردها بدهشة بالغة ، فهما لم تعرفا فيها
ذلك الميل للجولات المنفردة ، فقد كانت تميل دؤومًا إلى البقاء
في الفندق أو المنزل ، وحاولت (مديحة) إقناعها بمرافقتها ،

***** ٥١ *****

إلا أنها رفضت رفضاً باتاً ، متعللة بأنها تحتاج إلى منح نفسها فرصة التفكير في بعض الأمور بمفردها ، فما كان من حالتها إلا أن وافقت على خروجها ، شريطة ألا تتأخر عن الثالثة عصرًا . واستقلت (سماح) سيارة الأجرة إلى ساحة مسجد (القيروان) ، وراحت تتلفت حولها هناك بحثًا عن (حسين) ، ولكنها لم تجده ، وتبعت إلى أنها قد حضرت مبكرة عن الموعد بخمس دقائق ، وشعرت بخطئها لهذا ، وهي تتذكر قول (مديحة) ، بأنه يتعين على الفتاة أن تصل متأخرة ، عن أول موعد يجمعها بشاب ، حتى تثير اهتمامه ، ولا تبدو أمامه متلهفة عليه ، إلا أنها لم تلبث أن شعرت بالخجل من هذا ، فهي لم تحضر إلى موعد غرامى مع (حسين) ، وإنما جاءت ؛ لأنه أراد التحدث معها ، ولأنه صديق قديم ، وحبيب سابق لابنة خالتها ، ولكن .. هل جاءت من أجل هذا فقط ؟ ..

راودها شعور مُزدوج ، من الحيرة والاضطراب ، وبدا لها أنه من الخطأ أن تحضر للقاء (حسين) ، وأن تخفى الأمر عن خالتها و (مديحة) ، وتساءلت عما إذا كان من الأفضل أن تعود إلى الفندق ، وتخبرهما ، و
انتزعها من ترددها صوته ، وهو يقول :
— هل انتظرت طويلًا ؟
لحظتها نسيت كل شيء ، وخفق قلبها لرؤياه ..

***** ٥٢ *****

٧ — إحساس حائر ..

طاف بها (حسين) أرجاء الساحة المحيطة بالجامع ، ودعاها إلى الدخول ، حيث رأت الفناء الذى يتوضأ فيه المصلون ، والثريا الضخمة ، المتدلية فى أرجائه ، وذلك السكون المهييب الخيم على المكان ، برغم كثرة المصلين ، وشعرت (سماح) بارتياح نفسى يغمرها ، وهي تنقل بصرها من جهة إلى أخرى ، وسألها (حسين) هامسًا :

— ما رأيك فى المكان ؟

أجابته فى صوت خاشع :

— إنه يشبه الجامع الأزهر عندنا ، وفيه يشعر المرء بالصفاء والراحة .

تنهد وهو يقول :

— نعم .. هذا ما شعرت به فى أول مرة جئت فيها إلى هنا ،

ولهذا قصدت أن آتى بك إليه ، فلقد أتيت (تونس) حاملًا قلبًا محطّمًا بين ضلوعى ، وجراح نفسى ، التى سببتها لى (مديحة) أقوى من إرادتى على النجاح ، ووجدت فى هذا

***** ٥٣ *****

المكان الراحة التي أفقدها ، والبلمس الشافي لجروحي ،
وغمرني شعور عجيب لا يمكنني وصفه ، دفعني إلى عدم
الاستسلام ، وشحن من عزيمتي ، فكان البداية لكل ما حققته
من نجاح فيما بعد .

كانت تستمع إليه في صمت ، وقد غمرها شعور ، داخلي
بالسعادة ، انعكس أثره على وجهها ، فأشرق بابتسامة
عريضة ، ونظر إليها (حسين) ، قائلاً :

— لم تبسمين ؟

هزت رأسها ، قائلة :

— لا شيء .

ولكنها كانت تدرك سر سعادتها وابتسامتها ..
لقد أسعدها أن يأتي بها ، في أول لقاء لهما ، إلى مكان يحبه
ويرتاح إليه ..

لقد أراد أن تشاركه شيئاً يحبه ، وكان هذا يكفيها ..
وسألها فجأة :

— ما رأيك في تناول الخشاف ، على الطريقة التونسية ؟

هزت رأسها موافقة في صمت ، فجذبها من يدها ،
ليجتازا معاً فناء الجامع إلى الساحة المحيطة به ، وركبا معاً
سيارته ، التي انطلق بها إلى أحد الميادين الجميلة ، التي تظللها

الأشجار الوارفة ، حيث غادرا السيارة ، وأتجها نحو مقهى
كبير في أحد جوانب الميدان ، وأسرع إليهما صاحب المقهى ،
الذي بدا من الواضح أنه يعرف (حسين) ، وهتف مرحباً :

— أهلاً بالسيد (حسين) .. أهلاً وسهلاً .

صافحه (حسين) ، قائلاً :

— أهلاً بك يا شيخ (صالح) .. نريد اثنين من خشافك
المثلج .

نظر الشيخ (صالح) إلى (سماح) في تخابث ، وهو
يقول :

— كما تأمر .. سأعد وعاءً خاصاً من الخشاف ، من أجل
عيون ست الحسن .

جلسا معاً حول إحدى الموائد ، و (حسين) يقول :

— إنني معتاد على انجىء إلى هنا من آن لآخر ، وعلى الرغم
من أنني أمتلك فندقاً به أشهى المأكولات ، إلا أنه لا شيء في
نظري يعادل خشاف الشيخ (صالح) .

سألته (سماح) في فضول :

— ترى كم ست حسن صحبتها إلى هنا ؟

ابتسم (حسين) وهو يقول :

— أتصدقيني لو قلت إنك الوحيدة ؟

— ولكنك عرفت الكثيرات ولا شك .

— لقد أخبرتك من قبل أن لى عدّة صديقات ، وأننى لم أعش حياتى كراهب .

تملكها شعور مُبهم بالفضب إزاء صراحتة ، فقالت فى حدة :

— إننى لم أتوقع أن تعيش حياتك كراهب .
تطلع إليها فى دهشة لحدّتها ، وتنبّهت هى إلى ذلك ،
وشعرت بالخجل ، إلا أن هذا الخجل لم يمنعها من أن تسأله فى
همس :

— ألم تشغل إحداهن مكانا فى قلبك ؟

سرت المرارة فى ابتسامته ، وهو يقول :

— لا أظن الحب سيجد طريقه إلى قلبى مرّة أخرى .
العجيب أنها وجدت فى نفسها الخجل الجراءة لتسأله على
نحو مباشر :

— أما زلت تحب (مديحة) ؟

أشاح بوجهه مغمغما :

— سأكون كاذبا لو أخبرتك أننى أعرف إجابة صادقة على

هذا السؤال .

ثم عاد يلتفت إليها ، وقد بدا أن السؤال قد أهاج مشاعره ،

واستطرد :

***** ٥٦ *****

— لقد رأيتم عندما حضرتم إلى الفندق .

سأله فى دهشة :

— هل كنت موجودا هناك ؟

— نعم .. وعندما وقع بصرى على (مديحة) شعرت

باضطراب شديد ، أعجزنى عن التصرف ، وغمرنى إحساس
بالخوف ، عجزت عن السيطرة عليه ، فطلبت من موظف
الاستقبال أن يلفكم أننى غير موجود ، وهربت إلى جناحى
بالفندق ؛ لأختبئ كطفل صغير أراقب رحيلكم من بعيد ،
ومن العجيب أنه فى هذه اللحظة بالذات ، شعرت برغبة قويّة
فى أن أفرغ إليكم ، وأنادى (مديحة) ، ولكن شيئا ما فى
أعماقى جعلنى أخشى هذا اللقاء ، وأركن إلى الفرار ، إلا أنه
حتى محاولتى للفرار لم تكن حاسمة ، فلقد جعلت موظف
الاستقبال يخبركن أننى سأغيب لثلاثة أيام فقط ، فى حين كان
يمكننى أن أدفعه إلى ادّعاء أننى سأغيب شهرا أو شهرين ،
ضمائنا لعدم لقائى بكن أبدا ، وهذا يعنى أن عقلى الباطن يسعى
إلى لقاء (مديحة) ، على الرغم من خشيتى لذلك ، وحتى
لحظة مجيئى إلى الفندق ، كنت أتصور أننى قد تخلّصت من
حبّى لـ (مديحة) ، وأنها لم تعد بالنسبة إلّى أكثر من ذكرى
أليمة ، ولكن اضطرابى ، وشعورى المتناقض بين الرغبة
والخوف ، جعلنى أشك فى أننى قد طرحتها عن قلبى حقّا .

***** ٥٧ *****

تطلعت (سماح) إلى وجهه بعينين ساهمتين ، وقد تغلغل
في نفسها شعور بالحزن والإحباط ، ثم لم تلبث أن قالت في
صوت أقرب إلى الهمس :

— يالك من مسكين !

أثارته عبارتها ، فحدق في وجهها ، قائلاً :

— ماذا تعنين بهذه العبارة ؟

خفضت بصرها ، قائلة :

— إنك ما زلت تحبها .

صمت لحظة ، قبل أن يهمس :

— أتظنين ذلك ؟

أجابته في صوت يحمل رنة أسف :

— ما قلته لا يعنى سوى ذلك .. إنك ما زلت تحبها ، على

الرغم من كل شيء ، فأنت تخشى لقاءها ؛ لأنك تعلم أنك

أضعف من أن تقاوم مشاعرك نحوها ، وترغب في هذا اللقاء ؛

لأنك — في عقلك الباطن — كنت تتمناه دومًا .

نكس رأسه مستسلمًا لتحليلها ، وهو يغمغم :

— لو أن ما تقولينه صحيحًا ، فمن الأفضل أن ترحلن

سريعًا عن (تونس) ؛ لأننى أرفض الاستسلام لهذه العاطفة

مرة أخرى ، فالحب غير المتكافئ ضعف ومذلة .

***** ٥٨ *****

غمرها فجأة إحساس دافق بالحنان نحوه ، فمسحت يدها
على شعره بطريقة عفوية ، وكأنها — وهى التى تصغره بثمانى
سنوات — قد صارت أمًا له ، وهى تغمغم :

— لا بُدَّ أنك قد تعذبت كثيرًا .

رفع عينيه إليها ، متأثرًا بتلك اللمعة الحنون التى صوتهها
وأناملها ، ورفع يده فى آلية ، وأمسك يدها التى تنسج على
شعره فى حنان ، وتلاقت نظراتهما ، و

وقطع الشيخ (صالح) تلك اللحظة العاطفية ، وهو يضع
أطباق الخشاف أمامهما ، قائلاً بمرجه المعهود :

— بالهناءة والشفاء .

وكما لو أن حضور الشيخ قد انتزعهما بغتة من «يامهما» ،
سحبت (سماح) يدها من يد (حسين) فى اضطراب ، على
حين أعاد هو يده إلى جانبه ، وراى عليهما الصمت لحظة
ثقيلة ، قبل أن يقول هو فى صوت حاول أن يغلفه بالمرح :

— هيا .

سأله فى صوت متحشرج مضطرب :

— هيا ماذا ؟

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

***** ٥٩ *****

— هيّا تناول الخشاف .

وشاركته الابتسام ..

أوقف (حسين) سيارته أمام الفندق ، وهو يلتفت إليها ،
قائلاً :

— هل سنلتقى مرة أخرى ؟

أجابته وهي تغالب نفسها :

— من الأفضل ألا نلتقى مرة أخرى ، إلا إذا وجدناك في
فندقك غدا .

سألها في اهتمام :

— هل ستأتين إلى الفندق مرة أخرى ؟

صمتت برهة ، وهي تتساءل للمرة الألف ، عما إذا كان
ينبغي أن تذكر له الحقيقة ، ثم لم تلبث أن تراجعت ، قائلة :
— من المؤكد أن (مديحة) ستحضر لتحياتك غدا ، فهو
آخر الأيام الثلاثة ، التي حذدتها لغيابك المزعوم ، ولن أجد
سبباً لإثباتها عن ذلك ؛ لذا فمن الأفضل ألا تتواجد ، حتى
يمكنني إقناع خالتي و (مديحة) بالعودة دون مقابلتك ،
إلا إذا

تردّدت لحظات ، قبل أن تستطرد في حُفوت :

***** ٦٠ *****

— إلا إذا كنت ترغب في لقاء (مديحة) .

صمت برهة بدورها ، ثم قال :

— لا .. أعتقد أنه من الأفضل — كما اتفقنا — ألا يتم هذا
اللقاء .

ثم أردف في اهتمام :

— ولكن أليس من العجيب أن يُبدى (مديحة) ووالدتها
كل هذا الاهتمام بلقائي ، برغم رفضهما الجارح لي مسبقاً ؟ ..
لقد تصوّرت أنهما سيتحاشيانى شيء ما بقى من العمر ، فما
سرُّ هذا التحول المفاجئ ؟

أشفقت (سماح) أن تخبره بأن السرّ يكمن في ذلك
التحول ، الذي طرأ على أوضاعه الماليّة ، وزواج (مديحة)
الفاشل ، وتدهور المركز الماليّ للأم ..

أشفقت عليه من أن يعلم أنهما قد جاءتا لاستغلال عواطفه
نحو (مديحة) في إصلاح أمورهما ..

واكتفت بأن قالت :

— ربّما أصبح الماضي في طيّ النسيان بالنسبة لـ (مديحة) ،
وربّما هي تظن أنه كذلك بالنسبة لك أيضاً ، وهذا يعنى أنهما
يسعيان للقاء صديق قديم ، قد تفيدهما خبرته في رحلتهما
السياحية .

***** ٦١ *****

ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة حزينة ، وهو يقول في
مرارة :

— صديق قديم ؟!.. أهذا كل ما تبقى لي في قلب
(مديحة) ؟

فتحت (سماح) باب السيارة ، قائلة :

— سأنصرف الآن .

مدّ لها يده مصافحاً ، وهو يقول :

— سأفقدك كثيراً .

انتابها شعور بالاكئاب ، وهي تسحب يدها من يده ،

قائلة :

— وأنا أيضاً ..

— هل ستراسليني ، بعد عودتك إلى (مصر) ؟

— نعم .. بالتأكيد .

خشيت أن يهزمها حزنها وهي توذّعه ، فافتعلت المرح ،

وهي تقول :

— لقد كان الحشاش رائعاً .. أظنني سأفقدته أيضاً .

ثم شعرت بأنها تعجز عن رسم تلك الابتسامة الزائفة

على شفتيها ، فأسرعت تعدو عائدة إلى الفندق ، دون أن

تلتفت إليه ، على حين ظلّ هو جالساً في مكانه ، وقد جثم شيء

ثقيل على صدره ..

***** ٦٢ *****

وعندما اجتازت بوابة الفندق ، توقفت تسأل نفسها
في خيرة :

— هل أردت إبعاده عن لقاء (مديحة) ؛ لأن ضميري

يأبى أن يشاركها وأمها لحطّتهما لاستغلال عواطفه ؟.. أم لأنه

لا يستحق ذلك ؟.. أم .. لأنني أشعر بالخوف والغيرة من

هذا اللقاء ؟!..

تُرى هل يحقّ لها أن تعترف بهذه الحقيقة ، ولو بينها وبين

نفسها ؟..

حقيقة أنها قد أحبّت (حسين) ..

نعم .. إن حبها له ليس وليد اليومين الماضيين ، بل هو يرقد

في قلبها منذ سنوات مضت ..

كان موجوداً ، وهي تأبى أن تعترف بوجوده لأسباب

عديدة ، تحول بينها وبين الاعتراف ..

كان هناك ، وهي بعد في السادسة عشرة من عمرها ،

عندما كانت تراه كأحد فرسان القرون الوسطى ..

وشعرت بالذنب ، وهي تعترف لنفسها بهذا الأمر ،

فصحيح أن (مديحة) أنانية وصولية مدلّلة ، لا تعرف معنى

الحب الحقيقي ، ولكنها ابنة خالتها ، وصديقة طفولتها ، وهي

***** ٦٣ *****

تكن — ولا شك — بعض الحب لـ (حسين) ، حتى ولو كان
هذا الحب ضئيلاً ، أمام أطماعها وأهوائها ..

ولكن ما جدوى الاعتراف بحبها هي له ؟ .. ولماذا يؤنبها
ضميرها على هذا ؟ .. لقد انتهى كل شيء ، وهي لن تراه حتى
بعد الآن ..

وفي مصنع الفندق انهمرت دموعها ..
انهمرت في غزارة ..



***** ٦٤ *****

٨ — عيون حزينة ..

ألقت (سماح) نفسها فوق فراشها ، وأطلقت العنان
لدموعها الحبيسة ، دون أن تفتن إلى أن ابنة خالتها (مديحة)
ليست في الحجرة ، ولم تفتن إلى ذلك إلا عندما دخلت
(مديحة) من الباب ، فأسرعت تخفي دموعها ، وإن لم تنجح
في إخفاء حزنها وشجنها ، وهي تقول :

— (مديحة) .. أين كنت ؟

أجابتها (مديحة) بنبرة جافة قاسية :

— بل أين كنت أنت ؟

سماح :

— لقد خرجت أجول في المدينة ، و

قاطعتها (مديحة) في جدة :

— دُعك من هذه الأكاذيب المُصطنعة .. لقد رأيتك وأنا

أجلس في بهو الفندق ، تغادرين تلك السيارة الفاخرة

ودموعك تملأ عينيك ، حتى أنك لم تلاحظي وجودي .. لقد

كان ذلك الرجل الذي في السيارة هو (حسين) .. أليس

كذلك ؟

***** ٦٥ *****

[م ٥ — زهور (٣٢) وداعاً للماضي]

خفق قلب (سماح) ، وهى تقول :

— (مديحة) .. إننى .. إنه

ازداد انفعال (مديحة) ، وهى تقاطعها مرة أخرى فى عنف :

— ومتى قابلته ؟ .. لقد كان ذلك أمس ، عندما تغيبت

بالخارج .. أليس كذلك ؟ .. لماذا أخفيت الأمر عنا ؟

أجابتها (سماح) وهى ترتجف انفعالا :

— صدقنى .. لقد حدث ذلك مصادفة .. التقينا فى محل

أزياء يملكه ، وخرجنا معا .. وهو الذى طلب منى إخفاء أمر

وجوده فى (تونس) عنك وعن خالتى .

هتفت (مديحة) :

— ولماذا يطلب منك ذلك ؟

أجابتها (سماح) فى حزن :

— لأنه ما زال يحبك .

قالت (مديحة) فى سخرية :

— يحبنى ؟ .. أيفر من لقاى لأنه يحبنى ؟ .. أى لُغز هذا ؟

هتفت (سماح) :

— نعم .. إنه يحبك ، ولكنه يرى أنك غير جديرة بهذا

الحب ، ولا تستحقينه ، ويخشى إذا ما التقى بك أن ينكأ هذا

جراحه ، ويضعف أمام حبه لك ، فتفرون عليه كرامته

مرة أخرى ، كما هانت يوم أتى إليك يتسؤل لقاءك فى

***** ٦٦ *****

(الإسكندرية) فى محاولة أخيرة لإنقاذ الحب الذى تنكرت

له ، ومخاطبة المشاعر التى تحجرت فى قلبك ، فأيت أن تلتقى

به ، وتركه يرحل حاملا حبا مهزوما .. لقد بذل الكثير من

الجهد لينساك ، ويبدأ حياته من جديد ، وهو يخشى أن يضع

كل هذا الجهد سدى .

سألها (مديحة) فى قلق :

— هل أخبرته عن الغرض من مجئنا إلى هنا ؟

أجابتها (سماح) ، وعيناها تملآن نظرة ازدراء :

— ما كان يمكننى أن أخبره أننا قد جئنا إلى (تونس) ،

لتعودى به زوجا ، بعد أن أصبح مليونيرا ، وأن حبك له

لا يزال أنانيا وصوليا ، لا مجال فيه للعواطف ، ولا هدف من

ورائه سوى استثمار قلبه المسكين .

انفعلت (مديحة) قائلة :

— ألن تكفى عن ترديد تلك المثاليات السخيفة ؟ ..

ما معنى هذا الحديث عن الوصولية واستثمار القلوب ؟ .. إن

(حسين) يحبنى ، ولن يمكنه أن ينتزع هذا الحب من قلبه ،

حتى ولو فر من لقاى .. أنا أيضا لم أنكر أنى أحمل له بعض

الحب ، ولكننى أكثر واقعية منك .. وأكثر فهما للحياة ، كما

علمتى إياها أمى ، ولهذا رفضت (حسين) فى الماضى ،

***** ٦٧ *****

وقبلته اليوم .. إن أى متحائنين ينبغي أن يرتبطا بالزواج في ظل حياة مادية مُستقرّة ومستقبل مأمون ، فما الضرر من هذا ؟ .
ثم في أى صفّ تقفين ؟ .. في صفّ خالتك وابنتها ، أم في صفّ
(حسين) ؟

— إننى أشفق على هذا المسكين .

— ممّاذا ؟

— من أن يتعذّب مرّة أخرى على يديك .. إن شخصاً مثل
(حسين) يحتاج إلى عاطفة حقيقية ، تتناسب مع أحاسيسه
المرهقة ، فهو ما يزال يحمل قلباً عطوفاً شفافاً ، حتى بعد أن
أصبح مليونيراً ورجل أعمال ، وفهمى الصحيح لك يجعلنى
واثقة من أنه لن يجد لديك ما يحتاج إليه .

عقدت (مديحة) ساعديها أمام صدرها ، وهى تقول في

سخرية :

— لم لاتعلمينها في صراحة ؟ .. قولى إنك تغارين من مجرد

التفكير في زواجى منه .

انفضت (سماح) ، قائلة :

— ماذا تقولين ؟

— ما سمعته يا (سماح) .. كيف لم ألحظ ذلك من قبل ؟ ..

حديثك عنه ، إعجابك به .. دفاعك المستمر عن شخصه ،

***** ٦٨ *****

وأخيراً محاولة إخفاء وجوده في (تونس) عنّا ، والالتقاء به
سرّاً ، ومن غير المستبعد أن تكون علاقتهما قد بدأت من قبل
ذلك ، وأنتك أنت تدبرين لفراره من لقائى .

— أنت مجنونة ولا شك .

— سأكون مجنونة حقاً لو صدقتك ووثقت بك بعد

ذلك .. كفاك تمثيلاً لدور الفتاة المثالية ، ذات المشاعر
المرهقة ..

وفجأة فُتح الباب ، ودخلت منه (حكمت هانم) هاتفية :

— لماذا أسمع صياحكما ؟ .. هل تشاجرتما مرّة أخرى ؟

ولكن (مديحة) لم تُوقف انفعالها الغاضب هذه المرّة ، وهى
تهتف :

— تعالى لترى ابنة أختك الطيبة المسكينة ، التى ذهبت

لللقاء (حسين) من خلف ظهرنا ، وأوعزت له بأننا جننا
لخداعه واستغلاله .

احتقن وجه (حكمت هانم) ، وارتسم على وجهها

انطباع قاس ، وهى تتحوّل إلى (سماح) ، قائلة :

— أهذا صحيح ؟

قالت (سماح) ، ودموعها تسيل على وجنتيها :

— أقسم لك يا خالتي إن هذا لم يحدث قط .. لقد قابلت

(حمين) مصادفةً ، ولم أخبره إلا بما طلبتما منى أن يعرفه .

***** ٦٩ *****

— وَلَمْ لَمْ تَخْبِرِينَا بِأَنَّكَ قَدْ التَّقِيتِ بِهِ ؟
— هُوَ طَلَبَ مِنِّي أَلَّا أَفْعَلَ ، وَلَقَدْ وَعَدْتَهُ ، فَهُوَ لَا يَرِيدُ
الِالْتِقَاءَ بـ (مَدِيحَة) .

صَرَخَتْ (مَدِيحَة) :

— أَنْتِ كَاذِبَةٌ .

هَتَفَتْ (سَمَاح) :

— بَلْ أَقْسَمُ لَكَ إِنَّهَا الْحَقِيقَةُ ، وَهُوَ يَسْتَعِدُّ لِلْسَفَرِ بِالْفِعْلِ
إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ ، حَتَّى يَتَجَنَّبَ هَذَا اللَّقَاءَ .

صَاحَتْ (مَدِيحَة) :

— لَا زَيْبَ أَنَّهَا فَكَّرَتْكَ .

هَتَفَتْ (حَكَمْتُ هَانِم) فِي حَزْمٍ :

— اصْمُتَا .. لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَكُمَا .

ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَى (سَمَاح) ، مُسْتَطَرِدَةً فِي صَرَامَةٍ :

— اِسْمَعِي .. إِيَّاكَ أَنْ تَتَصَوَّرِي أَنَّنِي سَأُظَلُّ أَوْذَى لَكَ

دَوْرَ الْحَالَةِ الْعُطُوفِ إِلَى الْأَبَدِ .. إِنَّنِي أَعْرِفُ مِنْذُ الْبَدَايَةِ

أَفْكَارَكَ وَأَرَاءَكَ ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَوْضُوعِ ارْتِبَاطِ (مَدِيحَة)

بـ (حَسِين) ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمِي أَنَّ ابْنَةَ خَالَتِكَ قَدْ

أَصْبَحَتْ أَرْمَلَةً ، وَهَذَا يَغْنِي أَنْ فَرَصَتْهَا فِي الزَّوْاجِ مِنْ شَخْصٍ

مُنَاسِبٍ قَدْ انْخَفَضَتْ كَثِيرًا ، خَاصَّةً وَحَالَتُنَا الْمَادِّيَّةُ مُتَدَهَوْرَةً

***** ٧٠ *****

إِلَى هَذَا الْحَدِّ ؛ لِذَا فَلَمْ يُعَدِّ أَمَامَنَا سِوَى (حَسِين) ، ثُمَّ إِنَّهُ هُوَ
و (مَدِيحَة) مُرْتَبِطَانِ بِرِبَاطِ حُبِّ سَابِقٍ ، وَلِتَعْلَمِي أَنَّ هَذِهِ
الزَّيْجَةَ سَتَكُونُ لِصَاحِبِ الْجَمِيعِ ، وَأَوَّلُهُمْ أَنْتِ ؛ لِأَنَّنِي لَمْ أُعَدِّ
أَحْتَمَلِ نَفَقَاتِ إِيْوَانِكَ فِي مَنْزَلِي ، فِي وَضْعِنَا الْمَالِي الْمُتَدَهَوْرِ
هَذَا ، وَلِهَذَا فَمَنْ الْأَفْضَلُ أَنْ تَحْتَفِظِي بِآرَائِكَ وَأَفْكَارِكَ
لِنَفْسِكَ ، وَأَلَّا تَتَدَخَّلِي فِيمَا لَا يَعْنِيكَ ، مَا دَمْتَ لَا تَرْغِبِينَ فِي
مَعَاوَنَتِنَا .

غَمِغَمَتْ (سَمَاح) فِي انْكَسَارٍ وَمَذَلَّةٍ :

— سَأَفْعَلُ مَا تَطْلُبَانِهِ مِنِّي .

— حَسَنًا .. سَتَأْتِينَ مَعَنَا إِلَى فَنْدَقِ (حَسِين) غَدًا ، وَمِنْ

الْأَفْضَلِ أَنْ يَكُونَ هُنَا ، وَإِلَّا تَأْكُذْ لَنَا أَنَّكَ قَدْ لُحِثْتَ ثَقَّتْنَا فِيكَ

بِالْفِعْلِ .

— وَلَكِنْ .. لَقَدْ قَالَ إِنَّهُ

وَلَكِنْ (حَكَمْتُ هَانِم) قَاطَعَتْهَا فِي حَزْمٍ :

— كَفَى .. لَقَدْ قَلَّتْهَا كَلِمَةُ قَاطِعَةٍ .. إِمَّا أَنْ نَجِدَ (حَسِين)

فِي الْفَنْدَقِ غَدًا ، أَوْ

صَمَتَتْ لِحِظَةً ، ثُمَّ أَضَافَتْ فِي لَهْجَةٍ بِالْفُجَةِ الْقَسْوَةِ :

— أَوْ تَبْحَثِي لِنَفْسِكَ عَنْ مَا وَى آخِرَ ..

***** ٧١ *****

٩ - لقاء مع الماضي ..

شعرت (سماح) مسبقًا بذلك الغضب ، الذى ستصبه عليها خالتها ، وبالحوف من نظرات الشك والحقْد ، التى ستمطرها بها (مديحة) ، عندما يكشفان عدم وجود (حسين) فى الفندق ، مما سيؤكد صدق ما اتهمها به فى الليلة الماضية ، وراحت تترقب وصول السيارة التى تقلهن إلى الفندق ، فى توثر واضطراب ، وعلى الرغم من ذلك ، كانت مرتاحة الضمير ، فهى لم تحن ثقة خالتها و (مديحة) بها ، ولم تخبر (حسين) بالسبب الذى جاء من أجله إلى (تونس) ، كما استطاعت إقناعه فى الوقت ذاته بالألا يخوض تجربة اللقاء مع (مديحة) ، حتى لا يسقط أسير المشاعر الزائفة ..

نعم .. لقد أراحت ضميرها بالتوفيق بين الأمرين ، أيًا ما كانت النتائج والعواقب ..

وتساءلت بينها وبين نفسها :

— أيمكن أن يكون ما قالته (مديحة) أمس صحيحًا ؟ ..
هل شعرت حقًا بالغيرة منها ، مما دفعها إلى تأييد عدم حدوث اللقاء بينهما ؟

نفضت بسرعة ذلك الخاطر المزعج عن نفسها ، وهى تردّد :

— لا .. ربّما أن مشاعرى نحو (حسين) قد تجاوزت حدود الإعجاب حقًا ، وربما أن تلك الأحاسيس ، التى انتابتى نحوه أمس ، أكثر من مجرد تعاطف مع صدق مشاعره .

ولكن أيًا ما كانت مشاعرها وأحاسيسها ، فهى لن تتحوّل أبدًا إلى إنسانة أنانيّة ، تلعب كل الأدوار لصالحها ، على حساب ابنة خالتها ، فلو أنها كانت واثقة من أن حب (مديحة) لـ (حسين) صادق ، وأنها لا تبغى استغلال عواطفه لمصالحها ، لكانت قد بذلت كل جهدها للجمع بينهما ، وإصلاح ما فسد حتمًا ، حتى ولو كان ذلك على حساب مشاعرها المُبهمّة نحوه ، ولكن المشكلة هى أنها تعرف حقيقة حُطّة (حكمت هانم) وابنتها ، التى لا مجال فيها للعواطف ، ولا هدف لها سوى الاستفادة من ثراء (حسين) ، الذى تشعر بأنه لا يستحق ما يخطّطانه له ..

أرخت رأسها فوق مسند مقعد السيارة ، وهى تحدّق إلى الطريق فى سُرود ، وراحت تردّد فى أعماقها :

— فليكن ما يكون .. ربما غَدْنَا غَدًا إلى (مصر) ، وربما
طردتني خالتي من منزلها ، وتركنتي شريدة ، بلا مأوى
أو ملاذ أو معين ، وهى لن تتورّع عن ذلك ، خاصة وأن
(مديحة) لن تففر لى حرمانها من صيدها أبدًا ، ولكنى لست
نادمة .. الشيء الوحيد الذى سأندم عليه ، هو أننى لن أرى
(حسين) بعدها .

تنهّدت وهى تتذكّره ، وأعادت إليها ذكراه بعض البهجة ،
ونزعت الكثير من الحزن المطلّ من عينيها ..
لقد أخبرها (حسين) أنه يمكنها أن تراسله على عنوانه
بالفندق ..

نعم .. إن علاقتها به لن تنقطع ، فهى تستطيع مراسلته ،
وتعرّف أخباره عن طريق المراسلة ..
ستلقى به عبر كلمات الخطابات ، وسيبقى هناك
ما يربطها به ، وفى هذا ما يثلج صدرها ، ويخفف عنها أحزانها
لفراقه ..

أفاقت من شرودها وأفكارها على صوت (مديحة) ،
وهى تهمس فى أذنها بحدّة :
— إننى أحدثك .. ألا تسمعينى ؟
التفت إليها قائلة :

— معذرة .. كنت شاردة بعض الشيء .

قالت (مديحة) فى عصيّة واضحة :

— فيم تفكرين ؟

ردّت (سماح) قائلة :

— أنا مدينة أيضًا بضرورة إعلان ما يجول بخاطرى ؟

— كفّاك تحدّثنا بهذه اللهجة السقيمة ، وأخبرينى بم

حدّثك به (حسين) عنى .

— إنه يحمل لك فى أعماقه ذكرى مريرة .

قالت (مديحة) ، وقد اهتزّت ثقتها بعض الشيء .

— ولكنه ما زال يحبّنى .. أنا واثقة من ذلك .

قالت (سماح) فى هدوء :

— أتخشين أن يُفلس منك قلبه مرّة أخرى ؟ أم أن

ما يُقلقك هو ماله ؟

أجابتها (مديحة) فى تعال :

— إن قلبه ما يزال ملكًا لى ، ولست بحاجة إلى البحث عنه .

قالت (سماح) بنفس الهدوء :

— الشيء الوحيد الذى يثبت ذلك هو مقابلته لك ، فلو

أنه يحبّك حقًا ، فلن يغادر الفندق ، وهو يعلم أنك فى طريقك

إليه .

عادت ثقة (مديحة) في نفسها تهتز مرة أخرى ، وهي تسألها في قلق :

— هل أخبرك حقاً أنه سيغادر المكان ، حتى لا يقابلني ؟
— نعم .. لقد كانت هذه رغبته .

— ولكنني أعرف (حسين) جيداً .. لقد كان يحبني في شدة ، وهذا النوع من العواطف لا يندثر في سهولة ، إنه لم يكن يطيق التخلف عن مواعده معي ، مهما كانت الأسباب ..
إنني أذكر ذلك اليوم الذي جاء ليلتقي بي في الكلية ، وحرارته تبلغ الأربعين درجة مئوية ، وعندما عاتبته على إهماله لصحته ، قال إنه لن يتخلف عن موعد معي ، حتى ولو كان يُختنق .
وراحت تقول ، وكأنها تحاول إقناع نفسها :

— لا .. أنا واثقة من أنه سيكون موجوداً .. إنه ما زال يحبني ، وسينتظرنني .. وسيدوب كل ما بيننا عندما نلتقي ..
سترين ذلك .

كانت (حكمت هانم) تجلس إلى جوار سائق السيارة ، في المقعد الأمامي ، وقد ألقت رأسها على مسند المقعد ، متظاهرة بالنوم ، ولكنها لم تكن تستمع — في الوقت ذاته — إلى ذلك الحوار الدائر بين ابنتها و (سماح) ، وإنما كان تظاهرها بالنوم لتتيح لنفسها فرصة التفكير في كل المشاكل والأزمات التي تنتظرها ، لو لم تفلح في إتمام زيجة ابنتها و (حسين) ..

***** ٧٦ *****

لقد تراكت عليها الديون بصورة لا تُحتمل ، وحتى ذلك المنزل الذي تملكه أصبح مرهوناً ، بل إنها قد اقترضت تكاليف هذه الرحلة ، اعتماداً على ما أكدته لها (مديحة) من ثقته في استعادة (حسين) ..

وعضت شفتيها في ندم ، وهي تقول في أعماقها :
— لقد كنت غبية عندما رفضت زواجها من هذا الشاب ، وحرصتها على اقتلاعه من قلبها ، فلو لم أفعل ما احتجنا إلى بذل كل هذا الجهد لحل مشاكلنا .
ولكنها لم تلبث أن نفضت عن عقلها ذلك الشعور بالندم ، مستطردة :

— لا .. من المؤكد أنني ما كنت أستطيع قبوله وقتها ، فلم يكن — حينذاك — بالشخص المناسب لابنتي ، وما كنت لأتنبأ بكل ما وصل إليه ، وكل ما حققه من ثراء في سنوات قصيرة .. ولم أكن آنذاك مخطئة ، فالظروف المحيطة بأي شخص هي التي تجعل منه زوجاً مناسباً أو لا ..

توقفت أفكارها ، مع توقف السيارة أمام الفندق ، فغادرتها مع الفتاتين ، وقالت لابنتها ، وهي تتجه معها إلى الفندق :

— سأنتظر مع (سماح) في (الكافيتيريا) ، فمن الأفضل

***** ٧٧ *****

أن تسألني عنه ، وتلتقي به بمفردك ، فسيكون هذا أفضل .
ترددت (مديحة) في البداية ، ثم لم تلبث أن استعادت ثقتها
بنفسها ، فاتجهت نحو موظف الاستقبال ، على حين ذهبت
أمها و (سماح) إلى (الكافيتيريا) ، وسألت هي الموظف في
حياء :

— هل عاد السيد (حسين) من رحلته بالخارج ؟

ابتسم موظف الاستقبال ، وهو يقول :

— آه !! أنت الآنسة التي جاءت للسؤال عنه من قبل ..

أليس كذلك ؟

ضايقتها تلك المقدمة التي لا معنى لها ، فهي تريد إجابة
سريعة ومحدودة ، تنتزع منها هذا التوتر ، ولقد بدا لها موظف
الاستقبال بطيئاً ، وهو يقول :

— في الواقع ، إن السيد (حسين)

قبل أن يكمل عبارته ، رقص قلبها طرباً ، على صوت

يهتف :

— (مديحة) ؟!

التفتت تتطلع إلى (حسين) ، وملأت الفرحه قلبها

ووجهها ..

لم تكن فرحتها العارمة لرؤيته ، وإنما لأن وجوده قد أعاد

***** ٧٨ *****

إليها ثقتها في أنوثتها وفتنتها ، وهي كونه أضعف من أن يقاوم
حبه لها ..

وبأداء تمثيلي رائع لا يُقاوم ، اندفعت تتناول يده بين
يديها ، هاتفة :

— (حسين) !!.. لست أصدق نفسي !.. بعد كل هذه
السنوات !!.. كم افتقدتك .

ولكن (حسين) بدا أكثر رصانة وتماماً ، وتحكماً في
مشاعره ، وهو يقول :

— وأنا أيضاً .. لقد أخبروني أنك قد حضرت للسؤال
عني من قبل .

رمقته بنظرة عتاب ودلال ، وهي تقول :

— هذا صحيح ، ولقد قيل لنا إنك قد غادرت (تونس) .
أجابها في هدوء :

— نعم .. كانت لدي بعض الأعمال في الخارج .

زاد العتاب والدلال في نظراتها ، وهي تقول :

— ليس هناك ما يدعوك إلى الكذب .. فأنا أعلم أنك لم
تغادر (تونس) قط ، وأنها كانت محاولة منك لتجنب مقابلي .

بدا الغضب في ملامحه ، وهو يقول :

— من أخبرك بذلك ؟

***** ٧٩ *****

أجابته في دلال :

— لم يخبرني أحد .. لقد رأيت (سماح) تغادر سيارتك أمام فندقنا .

انفجرت أساريره ، ودوّت في أعماقه صيحة :

— ما دامت (سماح) لم تَحْنُ ثقتك ، فلا يهم ما إذا كانت (مديحة) قد عرفت بوجودك أم لا ..

وقالت هي ، وكأنها تضع الجواب على لسانه ، خشية أن يصددها جواب آخر :

— سأخبرك أنا لماذا خشيت مقابلتى .. لأنك ناقم على ، وتتصور أنني قد غدرت بك ، ولُحنت حبنا ، ولك كل الحق ، لو كان هذا شعورك نحوى .

حسين :

— ليس هناك ما يدعو لمثل هذا القول .

مديحة :

— بل لابد أن تمنحني فرصة شرح موقفى .

رمقها بنظرة تجمع ما بين السخرية والمرارة ، وهو يقول :

— أى موقف ؟ .. موقفك عندما تخليت عن حبنا ،

وانصعت في سلاسة لقرار أمك ، أم موقفك عندما جئتك في

(الإسكندرية) ، متوسلاً أن تمنحني دقائق من وقتك ،

***** ٨٠ *****

مناشداً قلبك ألا يتخلى عن حبنا الكبير ، الذى تعاهدنا فيه على الإخلاص والوفاء ، فرفضت بكل غطرسة أن تلتقى بى ، وأرسلت مع ابنة خالتك ردّاً قصيراً ، تنهى به كل شئ في لحظة ، وتقولين فيه إنك ترفضين مجرد مقابلتى .

امتزج الغضب بالسخرية والمرارة في صوته ، وهو يستطرد :

— إنك لا تدركين حجم الإحباط والمرارة والمهانة ، التى شعرت بها في ذلك اليوم .

لم تجد (مديحة) أمامها سوى أن تلجأ إلى أشهر وأقوى أسلحة المرأة ، فترقرقت في عينيها دموع زائفة ، وهى تقول :

— (حسين) .. إننى

ولكنه قاطعها دون أن يُبدى لغة تأثر :

— لا تبريرات جديدة يا (مديحة) .. لقد كان التبرير

أيامها واضحاً ، فلقد خسر (حسين) ، ابن الثرى المعروف

— آنذاك — تلك التركة المُتخمة ، وتلك الثروة والأموال

والعقارات ، عشية وفاة أبيه ، عندما تبين له أنها تركة مثقلة

بالديون ، ووجد نفسه في ليلة وضحاها فقيراً ، لا يملك سوى

قدر من المال لا يُشبع الهائم وابنتها ، وهكذا لم يُغد (حسين)

زوجاً مناسباً للأميرة الصغيرة ، فوداعاً إذن لكل عهود الوفاء

والإخلاص ، وليذهب الحب إلى الجحيم .

***** ٨١ *****

[م ٦ — زهور (٣٢) وداعاً للماضى]

وأضاف في سخرية :

— الحب الذى لم تعرفه أبدا .

بكت بدموع التماسيح ، وهى تقول :

— لا تظلمنى يا (حسين) ، إننى لم أحب يوماً سواك .

— هذا واضح .. بدليل أنك قد تزوجت بعد رحيلى إلى

(تونس) بشهر واحد .

— كنت مرغمة على ذلك ، فلقد كانت أمى مريضة ،

وتعرضت لعدة أزمات قلبية بعد وفاة أبى ، الذى بدد ثروته

كلها فى مشروع فاشل قبل وفاته ، وأصبح الفقر يهددنا بعد

حياة البذخ والثراء ، ولو أن الأمر بيدى لتساوى الفقر

والثراء ، مادمت سأحيا فى كنف رجل أحبه ، ولكن كيف

أنتحلّى عن أمى فى مثل هذه الظروف ، وأتركها للفقر والمرض ،

وهى التى ذقت طعم الرفاهية يوماً ؟ وهكذا التقت أسوأ

ظروفنا .. كنت أنا أقف عقبة فى طريق طموحك ، وأرفض أن

أحملك عبء فتاة فقيرة وأم مريضة ؛ لذا فقد ضحيت

بجنى لك فى سبيل أمى ، وفى سبيل أن أحقق لك ماتحاج

إليه من الحرية والانطلاق لتحقيق نجاحك .. هل عرفت

الآن لماذا رفضت أمى ، ولماذا رفضت أنا مقابلتك فى

(الإسكندرية) ؟ .. لقد خشيت أن أضعف أمامك ، وأنتحلّى

***** ٨٢ *****

عن قرارى وتضحيتى .. ولعلك تدرك الآن لماذا وافقت على

الزواج من رجل ثرى .. وليتى ما فعلت ، فلم أذق من هذه

الرَّيْجَة سوى البؤس والعذاب .

— وما الذى تغيّر الآن ؟

— لا شيء .. لم آت هنا لأذرف الدمع أمامك ، بل جئت

فقط لرؤيتك وتحيتك ، ولأطلب الصّفْح منك ، ثم أنصرف

على الفور ، و (سماح) وأمى ينتظراننى فى (الكافيتيريا) ؛

لنصرف معاً ..

لم يدر لحظة أيصّدّقها أم لا ، ولكنه قرّر أن يستسلم

موقّناً ..

يستسلم لها ..



***** ٨٣ *****

١٠ - أسير الحب ..

جلست (سماح) مع خالتها ، حول إحدى موائد
(كافيتيريا) الفندق ، المطلة على الحديقة ، وعيناها متعلقتان
بمدخلها ، ولم تكد ترى (مديحة) مقبلة مع (حسين) ، حتى
هبت واقفة في حركة لاشعورية ، وخفق قلبها في قوة ..
إنه لم يغادر الفندق إذن !..

لم يستطع مقاومة فكرة لقاء (مديحة) !..
ما يزال يحبها !..

ولم تدبر .. أشعر بالسعادة لرؤيته مرة أخرى ؟ أم بالغيرة
والتعاسة ؛ لأنها تأكدت من كونه لا يزال محباً لـ (مديحة) ؟..
أم بالشفقة عليه ؛ لأن (مديحة) لا تستحق هذا الحب ؟..
لقد تصوّرت أقوى من ذلك ، ولكن مشاعره التي هزمها ،
طيلة سنوات الفراق ، عادت تهزمه عند أول لقاء ..

واقرب (حسين) من المائدة ، وصافح (حكمت
هانم) ، قائلاً :

***** ٨٤ *****

— يسعدني أن ألتقي بك في فندقى يا (حكمت هانم)
لم تكن الأم أقل براعة من ابنتها في فن التمثيل ، فلقد رسمت
على وجهها ابتسامة وذوداً ، وهى تصافحه قائلة :

— لقد أسعدنى كثيراً أن أعلم بوجودك فى (تونس)
يا (حسين) ، وقررت ألا أنهى رحلتنا قبل أن نلتقى بك ،
خاصة وأن هذه كانت رغبة (مديحة) .

قال (حسين) بأسلوب أقرب إلى الرسمية :

— أشكرُك على أنكن لم تحرمنى هذه الزيارة ، خاصة
وأنها زيارتكم الأولى لـ (تونس) .

ثم صافح (سماح) ، وهو يتجنب نظرة الخيرة فى عينيها ،
قائلاً :

— أهلاً بك يا آنسة (سماح) .

ودعاهن إلى مائدة خاصة ، تحتل موقعاً متميزاً ، واختار
لنفسه مقعداً إلى جوار (مديحة) ، وهو يقول :

— هل تناولتن شيئاً ؟

أجابته (حكمت هانم) :

— عصير البرتقال ..

قال فى هدوء :

***** ٨٥ *****

— سأدعوكنَّ إلى بعض مشروباتنا الخاصة إذن ، حتى يحين موعد الغداء .

— لا داعي .. لقد أتينا لتحياتك فحسب ، وسنتناول الغداء في فندقنا .

— هذا لا يصح ، أنتن ضيفاتي .. كم تبقى لَكُنَّ في (تونس) ؟

— يومان فحسب .
— سأرسل من يُحضر حقائبكن إذن ، وسأخصَّص لَكُنَّ جناحي الخاص ، لتقمن فيه خلال هذين اليومين .

تظاهرت (حكمت) بالاعتراض ، وهى تقول :
— لا يمكننا قبول ذلك .. إننا لم نتخذ الترتيبات لذلك .
أجابها فى هدوء :

— كل شيء يمكن ترتيبه .. أرجوك يا (حكمت هانم) ، لا تحرمينى من شرف إقامتكن بفندقى ، خلال اليومين المتبقين لَكُنَّ فى (تونس) .

تظاهرت بالرُّضوخ ، وهى تبذل أقصى جهدها لإخفاء فرحتها ، قائلة :

— لست أدري ماذا أقول ، ولكنك تخرجنا كثيراً بهذه المعاملة ، خاصة وأن

قاطعها فى هدوء :

— دعينا ننسى الماضى .

رُبَّت على كَفِّه فى حنان مصطنع ، قائلة :

— المهم أن تنساه أنت ، وألا تكون ناقماً على ، وأظن أن (مديحة) قد شرحت لك كل شيء ، و

عاد يقاطعها :

— لا بأس .. إننى أقدر ذلك .

التقت نظرات (مديحة) و (سماح) ، ورأت الأخيرة نظرات الظفر والتشقى فى عيني الأولى ، وكأنها تقول فى صمت :

— أرايت ؟ .. إنه لم يقوَ على الفرار منى .. ألم أوكد لك أننى ما زلت أتحكم سيطرتى عليه ؟

لقد أصبح هذا الأمر بمثابة حرب بينها وبين (سماح) ، منذ رأتها تغادر سيارة (حسين) فى الليلة الماضية ، على الرغم من أن (سماح) — حتى هذه اللحظة — لم تحاول ولم تفكر فى الظفر بقلب (حسين) ، بل إن ذلك كان أبعد ما يكون عن خيالها ، برغم مشاعر الغيرة التى تتسلل إلى قلبها أحياناً .. وعادت (حكمت هانم) تدير دفعة الحديث ، قائلة :

— لقد بلغنى أن ظروفك المادية قد تحسنت كثيرًا ، منذ
استقررت هنا .

أجابها (حسين) فى هدوء :

— حمدًا لله ، لقد ساعدتنى الظروف ، واستطعت أن
أحقق بعض النجاح هنا .

سألته (مديحة) فى شغف :

— أتصحبني فى جولة لتفقد فندقك ؟

أجابها :

— بالطبع .. إنه ليس فندقًا ضخماً كال فنادق الأخرى ،
ولكننى أعدت تصميم ديكوراتها على الطراز الشرقى والعربى ،
وستروقك بعض اللمسات الفنية فيه .

— إننى مثوقة لرؤيته من الداخل .

— حسنًا .. سأصحبك لمشاهدته هذا المساء ، وستأتى

معنا (حكمت هانم) و (سماح) بالطبع .

قالت (حكمت هانم) فى خبث :

— لا .. إننى أفضل أن أسترىح فى حجرى .. يكفى أن

تذهب (مديحة) معك .

تجاهل (حسين) تلميحتها الواضح بالاكتماء بصحبة

(مديحة) ، وقال لـ (سماح) :

***** ٨٨ *****

— مارأيك أنت يا (سماح) ؟

حاولت أن تخفى مسحة الحزن التى تغلف وجهها ، وهى
تقول :

— لا .. من الأفضل أن أسترىح فى حجرى أيضًا .
قال معترضًا :

— ولكن ألا ترين أنه من الأفضل حقًا أن

— أسرع (مديحة) تقول :

— دغها على راحتها .

ثم أضافت فى دلال :

— ألا يكفيك وجودى معك ؟

هبت (سماح) واقفة بغتة ، وهى تقول :

— أسمحون لى بالتجوال فى الحديقة ، حتى تصل

الحقائب ؟

نهض (حسين) بدؤره ، قائلاً :

— أتجبن أن أصحبك ؟

قالت وهى تحاول أن تبدو متماسكة :

— لا .. الأفضل أن أسير بمفردى .

قال فى إشفاق :

— كما تشائين ، ولكن لا تنسى موعد الغداء .

***** ٨٩ *****

وقالت لها خالتها في حنان مصطنع :

— لا تبتعدى كثيراً يا بنيتى ، حتى لا نقلق عليك .

غادرت (سماح) المكان ، و (حسين) يتابعها بنظراته ،
حتى أمسكت (مديحة) بيده ، تدعوه إلى الجلوس ، وهي
تقول في دلال :

— (حسين) .. كم يسعدنى أن ألتقى بك مرة أخرى .

جلس وهو يتسهم ..

ولكن ابتسامته هذه المرة كانت باهتة ..
وحائرة ..



١١ — قلب لا يعرف الحب ..

تفقدت (مديحة) أقسام الفندق المختلفة ، في صحبة
(حسين) ، وهي تُبدى إعجابها الشديد بطريقة تصميمه ،
وإن لم يمنعها ذلك من الإشارة إلى ما ينبغي إضافته إلى هذا
الركن ، أو تغييره في ذلك المكان ، وكأنها تعدّ نفسها للدور
زوجة صاحب الفندق ، ولكن (حسين) ظلّ صامتاً معظم
الوقت ، مكتفياً ببعض التعليقات المقتضبة ، حتى كانا يعبران
تلك الشُرْفَة المطلّة على حوض السباحة ، ورأت (مديحة)
انعكاسات ضوء القمر على صفحة الماء ، وشعرت بنسمات
الهواء الرقيقة المنعشة ، التي تجود بها الطبيعة ، في مثل هذا
الوقت من السنة ، فقرّرت أن تستغل ذلك التأثير الرومانسى
لتسعى إلى هدفها مباشرة ، وتظاهرت بالتعثر ، ولم يكد
(حسين) يلتقط يدها ، في محاولة لمنع سقوطها ، حتى
التصقت به ، وتركت شعرها الأسود الناعم يلامس وجهه ،
واطمأنت إلى نجاح حُطّتها ، وإلى أنها قد أحدثت الأثر المطلوب ،
عندما رأت وجه (حسين) يَضطرب ويَختقن في وضوح ،
فأطلقت ضحكة قصيرة ، وهي تنظر إليه ، قائلة :

— ماذا طرأ عليك يا (حسين) ؟ .. إنك لم تكن تضطرب
إلى هذا الحد في الماضي ، عندما أقرب منك .
قال وهو يحاول إخفاء الانفعال الواضح في وجهه :
— ألا تَرَيْن أن الوقت قد حان لعودتك إلى حجرتك ؟ ..
لقد طالت جولتنا ، وأخشى أن تقلق (حكمت هانم)
بشأنك .

قالت في تبرُّم :

— ما زال الوقت مبكراً .. أترغب في التخلُّص مني ؟
قال متوتراً :

— على العكس .. لقد سعدت كثيراً بالوقت الذي
قضيناه معاً ، ولكنني لا أريد أن أسبب قلقاً لوالدتك ، ثم
إنه لدى بعض الأعمال ، التي يتعيَّن إنجازها .

قالت في دلال ، وهي تسوى عقدة رباط عنقه :

— لن تقلق والدتي ، مادامت تعلم أنني معك ، والأعمال
يمكنها أن تنتظر ، ثم ينبغي أن تتوقف عن معاملتي على هذا
النحو الرسمي ، وأن تتحدث معي كما كنا نفعل في الماضي ، أيام
الكلية .. هل نسيت تلك الأيام ؟ .. أنسيت كيف كنت تتغزل
في جمالي ؟ .

ابتسم قائلاً :

***** ٩٢ *****

— ما زلت تملكين وجهها جميلاً نظراً .
سألته في لهفة :

— أما زلت تحمل بعض الحب لصاحبة هذا الوجه ؟
— من الأجدر بالحب في نظرك .. وجه جميل ، أم نفس
جميلة ؟

— ماذا تُغني ؟

— لقد أحببت في الماضي (مديحة) الجميلة ، بما تصوَّرتَه
فيها من عاطفة مخلصّة ، وقلب وفّي ، ونفس هادئة ، أمّا اليوم
فلست أجد سوى جميلة الوجه فحسب ، والوجوه الجميلة
تتغصَّن مع الزمن ، أمّا النفوس الجميلة فلا ينال منها الدهر
أبداً .

— إذن فأنت لم تصفح عني بَعْدَ .

— على العكس .. إنني لم أعد أحمل لك شيئاً في نفسي ..
لقد كان من الغباء أن أترك نفسي تستسلم لمشاعر خوف
وضعف لا معنى لها ، وأن أفرّ من لقاءك ، عندما شاهدتك
لأوّل مرّة .. كان ينبغي أن نلتقي ، وأن نتحدّث ؛ ليتطهَّر قلبي
من أحقاد الماضي ، ولأنزع من نفسي ضعفها إزاء حبك
الوهمي ، الذي عشت أتصوِّره جُرحاً لا يندمل في نفسي .

اختنقت عيناها بالدموع ، وهي تقول :

***** ٩٣ *****

— لقد شرحت لك كل الظروف والدوافع التى
قاطعها فى هدوء :

— التى اضطرتك للتضحية بحبك من أجل ، ومن أجل
أملك المريضة .. أليس كذلك ؟. أتصوّرت لحظة أننى
سأصدّق هذه الرواية ؟.. إن أملك لم تكن تعاني أية أمراض ،
عندما تقدّمت لطلب يدك ، اللهم إلا مرض الطمع وحب
المال ، مهما كان المقابل ، أمّا عن الديون التى تراكمت بعد
وفاة والدك ، فلم يكن لها وجود إلا فى مخيلتك أنت وأملك ،
وحديثك عن التضحية زائف سخيف ؛ لأن مثلك لا يضحى
من أجل الآخرين أبدا ؛ لأنك ورثت الأنانية والجشع وحب
الذات عن أملك ، ولم أدرك ذلك إلا مؤخرا للأسف ..

احتقن وجهها ، وهى تقول :

— كيف تجرؤ على

ولكنه عاد يقاطعها :

— على أن أواجهك بالحقيقة ، التى لا مفر من أن
تواجهها يوما .. صحيح أنك تملكين وجهها فاتنا جميلا ،
ولكنك فى الوقت ذاته صاحبة نفس أنانية ، لم ولن تعرف الحب
يوما .

ومطّ شفتيه ، وهو يردف :

— وإننى لأرثى لك فى الواقع .

اكتست ملامحها بالكراهية ، وهى تقول فى انفعال :

— أهى التى أخبرتك بذلك ؟

— مَنْ هِىَ ؟

— (سماح) .

— (سماح) ؟ .. وما شأنها ؟

— تلك الجرباء .. إننى أعرف جيّدا ما تسعى إليه .. لقد
تسلّلت إليك ، فى مظهر البريئة المسكينة ، ذات المثاليات ،
لتدفعك إلى الابتعاد عني .. لقد رأيتك معها أمام الفندق فى
تلك الليلة ، وأدركت وقتها أنها ستلعب دورا مُزدوجا لإبعادك
عني ، وتيلك لنفسها .
— أى هراء هذا ؟

— تلك الجاحدة الحقود .. لقد أحسنا إليها ، وآويناها فى
منزلنا ، واتخذتها أنا أختا لى ، وشاركتها أدق أسرارى ، ثم
سعت لحرمانى منك ، والاستيلاء عليك لنفسها .. تلك الحيّة
الرّقطاء هى الأحق بكراهيتك .

وانطلقت تغدو نحو حجرتها ، وهو يهتف مناديا إيّاها ،
ولكنها لم تتوقّف ..
وتوقّف هو ..

وفى عقله برز نداء قوى ..

نداء حُب ..

١٢ - حُبِّكَ في قلبي ..

اقتحمت (مديحة) الحجرة ، على (سماح) وأمها ، وهي تواجه الأولى في عصبية :

— أهتلك .. لقد أدتِ دُورَكَ الحقير بكل براعة .

أُتسعت عينا (سماح) في ذهول ، وهتفت خالتها في دهشة :

— ماذا تقولين يا (مديحة) ؟ .. هل جُنِنتِ ؟

تحوّلت إليها (مديحة) ، صائحة بنفس عصبيتها :

— لقد كنت مجنونة حقًا ، عندما وثقت بهذه الحيلة الرقطاء .

شاركها أمها عصبيتها ، وهي تهتف :

— ماذا حدث بالله عليك ؟

كان (حسين) قد بلغ الجناح في هذه اللحظة ، وهمّ بطرق بابهِ ، عندما تنهى إليه من الداخل صوت (مديحة) ، وهي تقول في غضب :

— لقد كانت تلعب منذ البداية دُورًا مُزدوجًا ، وأنت المخطئة عندما طلبت منها أن تصحبنا في هذه الرحلة ، فلقد تظاهرت بمسايرتنا ، في حين كانت تخطط لنفسها لتنال هي (حسين) .. استغلّت براعتها في تمثيل دُور الفتاة المسكينة ، ذات القيم والمبادئ ؛ لتكسب عطفه ، وتدفعه إلى كراهيتي ، وأبلغته أنني أسعى وراء ملاينه ، ومن يدرى ماذا أخبرته أيضًا ؟

ثم التفتت إلى (سماح) هاتفة :

— ماذا كنت تبغين من وراء هذا ؟ .. أتصوّرت أنه من الممكن أن يحبك (حسين) ويتزوّجك في النهاية .. إنك واهمة يا صغيرتي ، فـ (حسين) لن ينظر إليك بعد أن أصبح مليونيرًا ، وحتى في أيام فقره ، لم يكن ليفكر في فتاة وضعية مثلك .. إن لعبتك لن تُحرز النجاح الذي تصوّرتَه ، غدا نجاحك في إشباع جُفدك وكراهيتك تجاه مَنْ أحسنوا إليك ، وشملوك بعطفهم .

تحوّلت (حكمت هانم) إلى (سماح) ، قائلة في غضب :

— أهذا صحيح ؟

ولكن (سماح) وجّهت حديثها إلى (مديحة) ، قائلة :

— برغم جهلى بسبب كل هذه الإهانات ، إلا أننى لست
أحتاج إلى القسم بأننى لم أحنث ثقتك بى .. أعترف أننى حاولت
إبعاد (حسين) عنك منذ البداية ، ولكن دون أن أخبره بأى
شئ ، وذلك حماية له من أطماعك ، التى لا تقف عند حد ،
وإخلاصاً لمبادئ أومن بها ، وعلى الرغم من ذلك فلم أخبره
أنك وأملك قد جئتما إلى (تونس) سعيًا وراء ماله ، واستغلالاً
لعواطفه ، وذلك أيضاً إخلاصاً لقيم أومن بها ، وهى أنه
لا ينبغى للمرء أن يخون ثقة الآخرين به ، خاصة لو أنهم أقرب
الناس إليه ، وأنت تعرفين جيداً أننى لا ألعب دوراً مُزدوجاً ،
فلم أكن راضية عن حُطَّتكمَا هذه ، ولقد أعلنت رفضى لها منذ
البداية ، ورفضى لمحاولتكمَا تعزيز مركزكما المالى وإنقاذه على
حساب التفرير بمشاعر صادقة مخلصه ، ولكنى اضطررت
للسفر معكمَا ، بعد إصرار خالتى ، لأقوم بدور السكرتيرة
الخاصة ، والخادمة الطيبة لكما ، استكمالاً لمظهر اجتماعى
زائف ، تشبثان به .. كما أننى لم ولن أفكر فى الاقتران
بـ (حسين) ، ولست ممن يلجأ إلى تلك الأساليب
الوضيعة ، للظفر بقلوب الآخرين ..

أمسكت (مديحة) بكفها ، وراحت تهزها فى عنف ،
قائلة :

— كفالك تمثيلاً وادّعاءً .. أعتقدين أننى صدقتك ، عندما
قلت إنك قد التقيت به مصادفة ؟ .. لقد كان كل شئ من
تدبيرك أنت ، ولكنك انكشفت فى النهاية ، ولم يعد دور
(سندريلا) يصلح لك ..

وهنا اقتحم (حسين) الحجرة ، وهو يقول فى غضب :
— كفالك ظلمًا لها .. إنها لم تخبرنى بشئ ، على الرغم من
أنه كان ينبغى لها أن تفعل .

ورمق (سماح) بنظرة خاصة ، وهو يضيف :

— فالثقة لا تُمنح للمتآمرين .

قالت (مديحة) فى انفعال :

— لا تحاول الدفاع عنها .

قال فى حزم :

— لست أدافع عن أحد ، فلك هى الحقيقة ، ومن مزايا
الثراء أنه يتيح للمرء الوصول إلى الحقيقة بأسرع من
الآخرين .. لقد أجريت اتصالاً هاتفياً مباشراً بطبيبكم الخاص
فى (القاهرة) ، والذى تربطنى به صلة قديمة ، وأكد لى أن
(حكمت هانم) لا تشكو من أية أمراض ، كما أكد لى بعض

الأصدقاء في (مصر) أن الديون لم تعرف طريقها إليكما
إلا بعد وفاة زوجك السابق (عبد القادر بك) ، الثرى
المعروف ، الذى كان أكثر فهماً لكما منى ، وأكثر إدراكاً
لحبكما للمال ، فتنازل عن كل ثروته لزوجته الأخرى ،
وأولاده منها ، فترككما في مخنة مائية حقيقية ، بسبب
بذخكما الشديد ، ولم يكن أمامكما سوى تقليب الدفاتر
القديمة ، والعثور على اسم محب مسكين طردتماه من حياتكما
يوماً بلا رحمة ، مجرد أنه لم يعد ثرياً .. ولكنه أصبح الآن
كذلك ، وأنت تثقين في تأثيرك على قلبه وعواطفه ؛ لذا فقد
وجدتما فيه الحل الأمثل لمشاكلك ومشاكل أمك .. ولذا كانت
رحلتكما إلى (تونس) .

انهارت (مديحة) ، وتفجرت الدموع من عينيها ، وهى
تقول في مرارة :

— ولكننى أحبك .. أقسم على ذلك .

قال فى حزم :

— ربما ، ولكنك تحبين نفسك أكثر من أى شخص آخر ،
ثم إننى لم أعد أحبك .

بكت فى حرارة ، وهو يلتفت إلى الأم ، قائلاً :

***** ١٠٠ *****

— لن يتغير فى الأمر شيء ، ستقضون اليومين الباقيين
هنا ، وسيبقى فندقى بكل العاملين فيه فى خدمتكن ، ولقد
أجريت اتصالاتى بالقاهرة ؛ لتسوية أمر الديون .
قالت (حكمت هانم) فى مرارة ، محاولة الحفاظ على
ماتبقى من كبريائها :

— إننى غير مستعدة لأن تسدد أنت ديوننا .

أجابها فى هدوء :

— إننى لم أفعل ، ولكننى حوّلت الدين لصالحى ،
ويمكنك سداذه وقتما تشائين .

لم تستمر (حكمت) فى اعتراضها ، فقد بدا لها هذا حلاً
مناسباً لمشكلتها ، فى الوقت الحالى ، وضمت ابتها إلى
صدورها ، وتعالى نحيبها ، وهى تقول بنفس الثبرة المتعالية ،
التي بدا وكأنها قد أصبحت جزءاً منها :

— سنسافر إلى (القاهرة) غداً .. لم يعد هناك ما يدعونا
للبقاء .

صمت (حسين) لحظة ، ثم قال :

— فليكن .. سأتصل بشركة الطيران ، وأحجز تذاكر ركن
لرحلة الغد .

قالت (سمح) فى خفوت :

***** ١٠١ *****

— أريد أن أعود إلى (القاهرة) الليلة .

قال (حسين) في حزم :

— هذا مستحيل .. لا توجد طائرات متجهة إلى
(القاهرة) الليلة .

قالت في توثر :

— إذن فسأقضى ليلتي بالمطار .

قال وهو يتطلع إلى (حكمت هانم) و (مديحة) :

— إننى أقدر دوافعك ، ولكننى أستطيع أن أوفر لك
حجرة أخرى ، حتى يحين موعد السفر .

ولكنها أسرعت تلتقط حقيبتها ، وتضع فيها ثيابها ، قائلة :
— لا .. أرجوك أن توفّر لى سيارة تقلّنى إلى المطار
فحسب ، و

قاطعها في صرامة :

— لا .. حتى ولو اضطررت لحبسك هنا .

تخلّت (حكمت) عن لهجتها المتعالية ، وهى تقول :

— ستقضين الليلة معنا يا (سماح) ، وسنسافر نحن كلنا

غداً ، فأنت لم تخطئى فى شيء ، ولا حتى (مديحة) .. المخطئة
الحقيقية هى أنا .

***** ١٠٢ *****

وأطلقت زفرة قويّة من أعماقها ، قبل أن تستطرد :

— نعم .. أنا المخطئة منذ البداية .

وأحاطت كفف (سماح) بذراعها ، وضمتها إلى صدرها
مع ابتها ، وربّت على رأسها فى حنان ، وهى تتابع :

— ثم إنك فى النهاية ابنة أختى .. أى ابنتى ..

تطلّع إليهنّ (حسين) فى تأثر ، ثم غادر الحجرة فى هدوء ،
وأغلق بابها خلفه ..

ومعه أغلق باباً آخر ..

باب حبه لـ (مديحة) ..

استعدّت الأسرة لمغادرة الفندق فى اليوم التالى ، وقد
حرّصن جميعاً على الانصراف فى هدوء ، دون مقابلة
(حسين) ، ولكنه كان ينتظرهن فى رذّة الفندق ، حيث لم
يغمض له جفن ، وهو يستغرق فى التفكير ، طيلة الليلة
الماضية ، حتى وصل إلى قراره الحاسم مع الصباح ، ولقد
استقبلهنّ وهنّ يغادرن المصعد ، قائلاً :

— أما من تراجع عن السفر اليوم ؟

قالت (حكمت) فى تواضع عجيب :

— بلى .. ونشكر لك حسن ضيافتك .

***** ١٠٣ *****

قال في حُفُوت :

— ستتقلكنَّ سيارتي إلى المطار إذن ، وستكون معدة بعد
بضع دقائق ، فهل تسمحين لي يا (حكمت هانم) بالتحدث
إلى (سماح) على انفراد ، خلال هذه الدقائق ؟
تطلعت إلى ابنة اختها ، ثم جذبت ابنتها من ذراعها لتبتعدا
معاً ، وهي تقول :
— تفضل .

اصطحب (حسين) (سماح) إلى أحد أركان الفندق ،
وجلسا معاً حول مائدة وضعت فوقها لفافتان كبيرتان ، وقال
في صوت هامس .

— (سماح) .. لقد قضيت ليلتي الماضية كلها أفكر
فيك ، فلست أطيق فكرة الابتعاد عنك ، بعد أن وجدت فيك
ما أصبو إليه من حب حقيقي ، وعاطفة صادقة .. إنك أقرب
إلى نفسي ، و

وضعت يدها على فمه ، تمنعه من الاسترسال في الحديث ،
وهي تقول :

— أرجوك .. دغني أرحل ، ولا تزد الأمر تعقيداً
وصعوبة .
ابتسم قائلاً :

***** ١٠٤ *****

— حسناً .. لن أتكلّم ، ولكن مارأيك في قبول هديتي .
قال هذا وهو يفتح إحدى اللفافتين ، ويتناول منها ذلك
الثوب المصنوع من الدانتيل الزرقاء ، والذي بهر (سماح) في
محل الأزياء ، ولكنها قالت في هدوء :
— أشكرك ، ولكن لا يمكنني أن أقبله .
— لماذا ؟ .. لقد قلت من قبل إنه ما من فتاة لا ترغب في
اقتناء ثوب مثله .

— وقلت أيضاً إنه لا يناسب فتاة مثلي .
فضّ اللقافة الأخرى ، وأخرج منها ثوب زفاف ، وهو
يقول :

— ولكن هذا يناسبك تماماً ، خاصة إذا ما كنت سترتدينه
من أجلى .
ملأت الفرحة وجهها لحظة ، ثم لم تلبث أن غابت عنه ،
وهي تُغمض عينيها ، وتهزّ رأسها قائلة :

— لا .. لا .. مستحيل أن أوافق على هذا .
وهبت واقفة ، محاولة الابتعاد ، ولكنه أمسك معصمها ،
قائلاً :

— لماذا يا (سماح) ؟ .. إنني أشعر أنك تبادليني نفس
الشعور .

***** ١٠٥ *****

قالت ، وهى تحبس دموعها فى مقلتيها :

— وما شعورك ؟

أجابها فى دهشة :

— ألا يكفى أن أعرض عليك ثوب الزفاف ، لتعلمى أننى
أحبك ؟

قالت فى ألم :

— لا .. إنك لا تحبى .. إنك تريد الانتقام من (مديحة)
فحسب .. تريد أن ترد لها الصاع صاعين ، عندما تراك وقد
فضلتى عنها ، بعد ما ارتكبت فى حقك ، وأنا الفتاة المسكينة ،
التي احتقرتها هى ذوماً .

هَبْ واقفاً ، وهو يقول فى غضب :

— ما هذا الهراء ؟ .. الزواج ليس لعبة انتقام مسلية ، إنه
مستقبل وأطفال ، وحياة جديدة ، ومنزل يمتلئ بالحب
والإخلاص والتفانى ، ولقد اخترتك لكل هذا ، فأنت وحدك
يمكنك منحى هذا ، وما كان لى أن أعبت بأمر مقدس كهذا ..
إن الانتقام لا يؤذى سوى صاحبه ، ولقد نرعت من نفسى كل
ما يتعلق بـ (مديحة) ، ولم يعد هناك من يشغل قلبى وتفكيرى
سواك .

خفق قلبها فى شدة ، وراح كيانها كله يرتجف ، وقد رأت
الصديق واضحاً فى عينيه ، حتى أنها هى نفسها لم تصدق ،
فغمغمت فى تلثم :

— (حسين) .. إننى

قاطعها فى حزم :

— إنك تبادلينى الحب .. أليس كذلك ؟

أطلّ حبا من عينيها ، وهى تتطلع إليه ، وتقول فى
استسلام :

— بلى .. ولم يبدأ هذا الحب عند لقائنا فى (تونس) ، بل
هو داخلى منذ سنوات ، دون أن أدرك حقيقته ، ولكن
المشكلة هى أننى أشعر بالإثم بسببه .
سألها فى دهشة :

— الإثم ؟! .. وما الذى يدعوك لمثل هذا الشعور ؟
فجأة برزت (حكمت) من خلف شجرة الزينة المجاورة
للمائدة ، وهى تقول :

— سأخبرك أنا ما الذى يدعوها إلى هذا .. ومعدرة ،
فلم أقصد التصنت إلى حديثكما ، ولكنى جئت أتعجل
(سماح) ، بعد أن أخبرنى السائق بضرورة الانطلاق الآن
للحاق بموعد الطائرة ، ولكن من حسن الحظ أن حدث هذا ،

فـ (سماح) تخشى أن تجرح مشاعر (مديحة) ، لو وافقت على الزواج منك ، وأن تبدو لنا ناكرة للجميل ، أو تؤكد بقبولها مارمتها به (مديحة) من أنها كانت تسعى للإيقاع بك ، ولكننى أؤكد لك ولها أن زواجكما سيسعدنى جدًا ، فلو أن القدر لم يوفق بينك وبين ابنتى ، فسيسعدنى زواجك من ابنتى الأخرى .

أقلت (سماح) نفسها بين ذراعى خالتها ، وهى تبكى هاتفة :

— خالتى الحبيبة .. لم أرك أبدا بمثل هذا الحنان .
ضممتها خالتها إلى صدرها ، وهى تقول مداعبة :
— ما الذى تقصدينه أيتها الشقية .. إننى لم أكن بمثل هذا السوء أيضًا .

ثم أضافت فى حنان :

— إنك لم تحولى ثقتنا فىك يا (سماح) ، بل كنت دوماً نعم الابنة ، فلا تعاندى نداء قلبك من أجل أو هام .. صحيح أننى متقدمة عنك فى السن ، ولكننى أدركت مؤخرًا أن الحقيقة ، التى ينبغى أن يحرص عليها المرء ، أكثر من أى شيء آخر فى الدنيا ، هى الحب .. الحب المخلص الحقيقى ، الذى لا تشوبه أية أطماع مادية .. تزوجى واسعدى يا بنيتى ، فكلما يناسب الآخر .

***** ١٠٨ *****

وتناولت ثوب الزفاف من المائدة ، وناولتها إياه ، وهى تقبل جبينها ، مستطردة :

— وهذا يناسبك أيضًا .. أتمنى لكما حياة سعيدة .

سألتها (سماح) ، وهى تمسح دموعها :

— وماذا عن (مديحة) ؟

تنهدت (حكمت) فى حزن ، وهى تقول :

— ربما كان درس الأمس بداية حقيقية لعلاج نفسها

وأنايتها ، وعلاج نفسى أيضًا ، وسيحتاج هذا إلى بعض الوقت

حتمًا ، حتى تنظر كلتانا إلى الأمور نظرة مختلفة ، عن تلك التى

عشنا ننظر بها طيلة عمرنا .

ثم صافحت (حسين) ، مستطردة :

— بارك الله فىك وفى عروسك .. حاول أن تحافظ عليها

جيدًا .

سألها فى تأثر :

— ألا تبقين لحضور حفل الزفاف ؟

هزّت رأسها ، قائلة :

— سيكون ذلك صعبًا مع وجود (مديحة) ، ولكن قلبى

سيكون معكما .

وعادت تحتضن (سماح) ، وتقبلها قائلة :

***** ١٠٩ *****

— طمئني عليك دوماً ، واحرصي على زوج المستقبل ،
فهو يكن لك حبا حقيقيا .

ومسحت دموعها بأناملها ، وأسرعت تبتعد ، وهي تلوح
لهما ، فقالت (سماح) في تأثر ، وهي تتابعها بعينها :

— أتعلم أنها أول مرة أراها فيها تبكي ؟

أحاط كتفها بذراعه ، وهو يقول في حنان :

— لكل شيء بداية .

ثم أضاف في حب :

— ما رأيك في أن نبدأ إعداد متطلبات الزفاف ؟

ضمّت ثوب الزفاف إلى صدرها ، واستكانت لذراعه

التي تحيطها بالثقة والحب والأمان ، واتجهتا معا لإعداد

حفلهما ..

وبدء رحلة حبهما ..

[تمت بحمد الله]



المؤلف



أ. شريف شوقي

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب
أو الأم حرجاً من وجودها بالمنزل

وداعاً للماضي

بين جراح الماضي، وبسمة
الحاضر، تتفتح آمال المستقبل ..
لقد أخفى (حسين) بين ضلوعه
قلناً جريحاً ، أراد البعض أن ينكأ
براحه من جديد .. وأرادت (مديحة) أن
تضم الماضي والحاضر والمستقبل معاً ..
راحت (سماح) تتأرجح بين
واجبها ومشاعرها .. فماذا
أفخر القدر للجميع ؟ ..



التمن في مصر

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم